شاكر نوري

نافذة العنكبوت

ABU ABDO ALBAGL

إذا أعجبك الكتاب, فرجاءً حاول أن تشتري النسخة الورقية.
تذكر أن الكتاب العرب معتّرون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن استمرار عطائهم.
(أبو عبدو)

نافذة العنكبوت

نافذة العنكبوت / رواية عربيّة
شاكر نوري / مؤلّف من العراق
الطبعة العربيّة الأولى ، ٢٠٠٠
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي :موكيالي ،
هاتفاكس : ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس :٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
صورة الغلاف :
فؤاد شاكر / العراق
الصفّ الضوئي :
مطبعة الجامعة الأردنيّة ، عمّان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

Iza g

critique de cinema

specialiste du ci

. . . إلى زوجتي رجاء .

الى ذلك الطفل الذي لن يكبر ابداً . . . عبد الرحمن ، الباعث الاول والاخير لهذه الرواية وللراحلة أم جلال العرفان كله .

« . . . مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت إتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . »

قرآن كريم

« . . . اذا كانت الأصنام المادية ثعباناً فإن الأصنام الفكرية تنين »

جلال الدين الرومي

« . . . الحب عند الضعفاء يتضمن دائماً توجهاً مؤكداً للقتل »

كوبو آبي

« . . . لاتفحص الرواية الواقع بل الوجود »

ميلان كونديرا

ها أنذا أدخل في جلد أخي الصغير ، حشرة نزقة غير مبالية بدم الآخرين ، بعد غيبة دامت سنوات طويلة ، ناسجاً في رأسي مثلما تنسج امرأة عجوز بدلة لحفيدها من خيوط الصوف ، تفاصيل تلك القصة كما رأيتها بأم عيني ، عبر تسعة شهور ، ومما استخرجته أمي من أنفاق ذاكرتها الطرية عن تلك الليلة – ليلة العرس التي وطئ فيها عبد الرحمن عتبة زوجته شيرين للمرة الأولى .

الشهر الأول

صباحات لها مذاق الصدأ

BIBLIOTHEQU

أيار

فاح العطر من باطن هذا الربيع ، مرهوناً في أول إطلالته مثل نبات الفطر البرّي الذي يخرج فجأة ، ليتناثر كالأمواج في الهواء المضطرب في محاولة للاختباء بين طياته ، وتغيير مذاقه ، فيما أفاق عبد الرحمن لتوه من النوم بفعل تسلل هذا العطر المفاجىء الى تضاريس أنفه المرتخي والمبلل بمخاط شفاف سائل ، وهو يتردد في استنشاقه مرة واحدة ، رغم تذوقه العطر ، كي لايختنق بزكام الربيع الذي يظهر ويتلاشى مثل مرض مزمن يبعثه هبوب أدنى ريح لينشر في جسده حبيبات حمراء ناعمة ، لامرئية تقريباً ، تأكل مسام جلده ولاتهدأ حتى ولو نشب فيها أظفاره الحادة التي تمنى أن تتحول الى مخالب صقر وحشي لتستأصل هذه الحبيبات الحمراء الرؤوس من جذورها ، وانتبه للمرة الأولى بأن الليل كان هادئاً في مخيلته قبل زواجه ، فأصبح الآن أكثر ضجيجاً من النهار ، عواء كلاب وأنينها المتحشرج كأنها تتحول الى ذئاب من طول عزلتها الليلية ، وهي تحلم بمضاجعة جثث آدمية

علها تلتهم جزءاً من خبثها قبل أن يقتنصها الصغار الملاعين ، بتعليق اللحوم في صنارات صيد الأسماك لقتلها على طريقتهم الصبيانية اللاهية التي تعلموها وقت الحرب ، فيما كانت الرياح تتوجه صوب الأشجار لتستعير من نسغها عنفوان القوة ولتتحول الى عواصف لكنها لاتجد سوى الخواء ، فتخبو داخل طياتها وتستكين ، إنها ليلة العرس التي جعلته يشعر بكل تلك التفاصيل التي لم يكن سعيداً بدونها فحسب ، بل لم يكن حتى بحاجة لمعرفتها على الإطلاق .

كابوس ليلي اخترق الفجر عنوة ، متسللاً جدران غرفته كطيف غير مرئي ، مما جعل قطرة دم سريعة الجريان ، تتسرب في متاهة شراييه اليقظة التي مالبثت أن تخثرت مثل لبن فاسد في تلك البقعة المظلمة من الرأس - الدماغ ، وراحت تقض مضجعه بطبولها كلما استسلم الى بقايا فتات النوم ، مابين انفتاح عينيه وإغماضهما على الوسادة المحشوة بالريش الأبيض الناعم ، امّحت حدود الحلم والكابوس والنوم والجدران وضياء الفجر ذلك الخيط الرفيع الواهي الذي يداهم رأسه كل ليلة ويشقه الى نصفين متصارعين دون أن يعلن عن مجيئه عبر اضطرابات الجسد وتقلباته على سطح السرير الساخن بفعل همومه لساعات طويلة حين يضجر من رقاده الرتيب على جهة دون أخرى ، مضطراً للنهوض قليلاً ورفع جسده تاركاً سريره الخشبي ذا الصرير المخيف في هدأة الليل . لعل سبب ذلك هو البول المحصور في مثانته وليس الكوابيس المهاجمة هذه المرة ، لذا يهبّ هارعاً الى غرفة المراحيض ، ويقطع صحن المنزل بقدمين مرتخيتين ، فتلوّح وجهه نسمة الربيع فتنفض بعض أجزاء جسده الحيّة العرق والزوائد الأخرى فيما تبتلع الأجزاء الميتة السعال والحشرجة والمخاط والبصاق ، فيزداد وجهه اصفراراً ، وهو يُفَرِّغ أحشاءه من مزيج الأكل والخمر ، ويتعثر إثر غيمة مشاكسة حجبت ضوء القمر الساقط على صحن المنزل . وما إن

وضع رأسه على الوسادة حتى ارتفع صوت المؤذن معلناً صلاة الفجر ، وطارداً آخر ثمالة نوم من عينيه . حينئذ أدرك أنه الفجر ، ذلك اللون الغامض الذي لايعرف تماماً ملامحه بقدر مايعرف فيه من كسل وتراخ بعد أن أعلنت الكوابيس هدنتها لبرهة ، بعد أن امتصت كفايتها من ظلام الليل ، الذي يبعث في رأسه شياطين الوهم الممزوجة مع صور الملائكةالتي تلوِّح بأجنحتها ابتهاجاً لعذاباته ، فذهب ذهنه في الحال الى الخلط بين ملائكة الشر وملائكة الخير في تحليقاتها الساخرة والمدوّية على كتفيه العاريتين ، وكلما حاول نسيانها ، يذكّره بها صوت المؤذن الصاعق . استند على ظهره المحني ، ملتصقاً بحافات السرير ، وتطلع من نافذة الغرفة الى أن امتلأت عيناه بفيض من ظلام الفجر الممزوج بخيوط بيضاء انحصرت بين شقوق النافذة . كان كلّ شيء يحاصره : الفجر ، الكوابيس ، زكام الربيع ، الملائكة ، الصلاة ، الحرب وشيرين . هذا هو الفجر الذي عرفه أخي الصغير في ليلة عرسه مما زاده خوفاً وريبة وبثّ في أعماقه نوعاً من الحماس ايضاً ، ليتخلص من براثن هذا الكابوس الأعمى بخيوطه المخاطية ، اللاصقة ، مثل لحاء شجرة فتية ، وجعله يتردد بين رغبة النوم ومحاولة الاختفاء كلياً من هذا العالم وبين الغوص في جسد زوجته المخدر ، لكنه لم يتمكن من إخفاء هذا الكابوس بين طيات الأغطية الصوفية المتراكمة على جسديهما مثل خيمة عسكرية ، ثقيلة كالحة ، ولا أن يمضي الى أعماق هذا الجسد المسترخي بجواره مثل حيوان مدجّن ، غائر العينين ، لايرفض عبودية الانصياع وتطبيق القوانين الجاهزة .كابوس أكبر من رأسه بل وأكبر حتى من الغرفة ، يفيض من بين جدرانها ليصل الى الغرف الأخرى ، غرفتي وغرفة أمي ، بل أكثر من ذلك يمتد الى سطح الكون هائجاً مثل بحار تفيض وتقلب السفن وتُغرق الحيتان . أتى هذا الكابوس كصوت من البراري النائية ، رياح سوداء

عاتية تتقوى كلما مرّت بقمم جبال شاهقة ، حمّى تجتاح هيكل جسده وتتسلل الى نخاع عظامه ، صداع يَقْسم رأسه الى نصفين ، نصف مضيء ونصف مظلم ، ومابينهما تختفي ثمالة هذه الليلة : ليلة العرس ، وتساءل بمرارة :

– هل هذا الكابوس صوت مزمجر انطلق من آلة موسيقية لم تُخْلق بعد ، أصداء بئر عميقة ، مجوفة ، غارقة في الظلام ؟ أهو ، ياترى ، بئر طفولته ، تلك البئر التي يرى فيها كل مآسي العائلة ، وبالذات اغتيال أبي . بئر تتموج فيها صور صقور محلقة في السماء ودلافين تعبث في جوف البحار .

رفع نظره الى السجّادة ، المطرزة بالأيدي ، والمعلقة على الجدار المقابل لسريره يكشف له بعض ضوء طفيلي أتى من الصحن لينير وجه فارس يطعن حيواناً وحشياً ، ذا مخالب جارحة ، برمحه ويجعل الدماء تنزف من فكيه . منذ تلك اللحظة ، جثم ذلك الحيوان ، مثل صورة معلقة ، توشك على السقوط احياناً ، على خياله واحلامه بحيث اصبحت كل الحيوانات ، حتى الوديعة منها ، جارحة ومخيفة وباعثة للحمى في مخيلته . في تلك اللحظة ، البرهة التي تختبىء بين خدر النوم وكسل اليقظة ، إذ يلفظ فيها الزمن أحشاءه الزائدة خارج دورته في تعاقب الليل والنهار ، رأى بالفعل صقوراً تداهم نافذة غرفته ، تهجم على جسده العاري ، وتنقر قضيبه الواهن ، العاري ، المتدلي نحو الأرض مثل خرقة بالية أو مجرد مصران مجوف داكن اللون ، وهو خائر القوى يرغي ويزبد ولايقوى على طردها في اشتباكها الأخير على عري جسده ولا يمتلك الاّ أن يستسلم الى الارادة الالهية التي أسكنت حيامنه المنوية في سبات عميق ، بل وأفقدتها طاقتها في فض بكارة زوجته وإنتاج ولد شبيه . هذا الشبيه لن يولد ، في مملكة أقامت أمي صرحها ، الاّ بالمعجزة . أجل كنّا ننتظر هذه الكلمة الالهية ، المعجزة ،

التي لاتكلفه شيئاً حين يقذفها من فمه الهائل المليء بعبارات كن فيكون الى مالانهاية .

٢

فتح جفنيه اللزجة ، الناعسة ، وأحس بأن الصحراء برمالها المتّقدة ، الحارة ، الحارقة ، انتقلت الى رأسه واستقرت جمراتها المستعرة ، اللاهبة ، في ذلك المكان المضطرب : رأسه ، فأسرع وتناول جرعة من الماء ، ثم طاف في غرفته باحثاً عن إجازته العسكرية التي لم يبق لانتهائها سوى اسبوع واحد يحتم عليه الالتحاق بثكنته ، أراد أن يتأكد من تاريخ انتهائها فقط . ثم مد يده الأخرى يفرك عينيه من حبيبات الرمل الوهمية بين جفنيه ، وهو يلهث كما لو كان يهرب من بدو متوحشين يطاردونه بسيوفهم ، وطائرات عملاقة ترشه بالصواريخ ، ثم نظر الى النافذة حيث تركت آثار بصمات اجنحة الصقور بقع دماء حمراء لاصقة ببقايا الزجاج المهشم . وللمرة الأولى بدأ يشك ببصره ، وتساءل في سره : إمّا أن يكون الكابوس حقيقياً أو أن غرفته إنتقلت الى الصحراء وانغرست أعمدة سريره في رمال متحركة . وحين فرك عينيه جيداً وأزاح طبقة البياض المترسبة بين

جفنيه ، توضح له شكل الوشاح الأحمر الذي القته زوجته على كرسي بجوار النافذة قبل ساعات استعداداً لتكملة نزع ثيابها لأداء الواجب الزوجي إذ نظر بدهشة الى جسدها ، ولم يتخيله بهذه النضارة والجمال ، وتحسّر كيف أمضى نصف حياته بعيداً عن هذا الجسد الأنثوي ، رجل عاش برئة واحدة أو بدين وثني أو بعزلة متوحشة فخفض رأسه الى السرير خجلاً من زوجته التي كانت غريبة عليه قبل قليل ، كاشفاً لها عن عورته دون أن يفلح بفض بكارتها الآن ، شرود ذهني لايسمح له بجمع قواه ، وتركيزها في بوتقة واحدة . تلمس قضيبه العاري المتدلي ، وقد التفت غضاريفه الجلدية الفالتة مع الشرشف الناصع البياض ، ثم جال بنظره في تلك البقعة الممتدة تحته كسجادة من القطن ، باحثاً عن نقطة الدم الحمراء التي من شأنها ان تثبت رجولته وترفع رأسه عالياً بين أمه وزوجته وجيرانه وابناء قبيلته . ليس هذا عرسه بل عرس قبيلته التي تفككت فروعها ، وذبلت أغصانها في انصهار الاجناس والاعراق ، وتشردها في أتون حربين متواليتين ، ثم اجتماعها الآن بعد أن توزعت على فرق متقاتلة ومتصارعة فيما بينها . حمدنا الله أن عرس أخي جمع الأخوة الأعداء في هرج ومرج . لكنه في هذه اللحظة المحيرة لم يفكر بهذه الترهات بقدر مايفكر بخجله المنساب على شكل قطرات عرق مالحة ، رجولته المهدورة أمام عيني زوجته . هكذا اختفت نقطة الرجولة الحمراء في كومة الشراشف البيضاء المبعثرة مثل قطعة ظفر صغيرة ، مقطوعة ، ضائعة ، وراح يفتش عن تلك النقطة التي لايعادلها سوى قطرة خجل متخثرة بين ثنايا جسده ، ذلك الإثم الأزلي ، لكن زوجته لم تكن تعرف عمّا كان يبحث ، فنظرت الى خاتمه ، فرأته يلتمع ضاغطاً ، ملتوياً على عروق إصبعه الزرقاء ، وتساءلت :

- إذاً إنه لايبحث عن خاتمه ، عمّا كان يبحث ياترى ؟

لم تفهم شيئاً . وحين أخرج رأسه الذي دسّه في تجاعيد الشراشف ، لم يعثر الاّ عل بقعة مبللة ، قطرة بول ، لا أكثر ولا أقل ، نزلت دون ارادته اثناء ماكان يدفع بكوابيسه الليلية خارج رأسه . ثم حدّق جيداً في النافذة التي سرعان ما تراجعت ، وهربت ، بعيداً عنه ، بسرعة فائقة في نفق مظلم داكن حيث زمْجَرَ قطار الليل ، المعبأ بالرجال والأطعمة والأعتدة العسكرية ، وهو يقتحم النفق الحجري الطويل الذي غَلّف روحه بغطاء قاتم دقائق معدودة .

تذكر ساعة ابتهاجه لرحلته بالقطار بصحبة أمي لتخطب له شيرين . . دخان ممزوج برائحة جثث متروكة ، متعفنة ، معظمها جثث حيوانات برية ، خائفة ، هربت من حرارة قصف القنابل ووجدت مصيرها بين قضبان السكك الحديدية تحت رحمة عجلات القطار ، وهي تبحث عن آخر فرصة لتوفير طعامها أثناء أيام الحصار ، هذه الأيام التي عبقت برائحة غريبة ، طعم مرارة ، عالقة في جوف حلقه . هكذا . . قدر هبط على الرؤوس ، قبل أن تحّل هذه الأيام ، لم يكن للأشياء طعم أو مذاق : لحوم مجفّفة ، رّز ، طحين ، غلال مغلفة بورق السلفون ، كلها تأتي جاهزة على ظهور الطائرات والبواخر والشاحنات ، عند المزارعين الذين أهملوا الأرض يوم سقطت الاشتراكية على رؤوسهم مثل أطباق طائرة غريبة . بعد أن عاد من شروده الذهني لم يجد شيرين بجواره على سريرهما المشترك ، حرّك بصره في أرجاء الغرفة ، سرعان ما رآها تنهمك بتعليق الشراشف البيضاء أمام النافذة ، لتتبخر بقعة البول في أدراج الرياح . بعد ذلك عادت الى الغرفة بالتماع شعرها الأصفر ، المطلي بالزيت ، تحت ضوء المصباح الخافت في أعلى طاولة زينتها ليل نهار ، تألق ذهبي أصفر مائل نحو الاحمرار نوعاً ما ، ينبعث من شعرها المصبوغ باللون الأصفر ، بعض خصلاته بدت أكثر اصفراراً من الخصلات الأخرى ، نوع من تدّرج الألوان ، العابث ،

غير المقصود ، لكنه يكشف في الوقت ذاته عن نوعية الصبغ الرخيص الذي كان يضطرها الى أن تعيد صبغه كلما بهت بريقه ، قبل أن يخرج الشعر الأسود ويستولي كنباتات وحشية ضارة على بقايا اللون الأصفر .

فتح عبد الرحمن فمه ، فتدلت شفته السفلى ، اللماعة بالبصّاق ، منذهلاً لهذا اللون الأصفر الذي لم ير مثيلاً له الاّ في صور ممثلات السينما ، لكن وجهها الأسمر ، المليء بالبثور ، لم يكن يتلاءم مع اللون الأصفر بل يشكل مفارقة محزنة في لعبة انسجام الألوان ، غبار ذهبي يطلي شعرها المصفّف باعتناء ، حتى يخيّل لمن يراها في تلك اللحظة بأنها لم تحرّك رأسها على الوسادة طيلة الليلة الماضية ، خوفاً من تبعثره ، غطتّه بخرقة تشبه شباك الصيادين ، المَخْيطَة بمربعات متقاطعة ، من أجل الحفاظ على انتظامه . ولم تكن كَل اضطرابات رأسه وكوابيسه التي تجهلها ، قادرة على بعثرة أو تحريك خصلة واحدة من خصلاته ، المتحّدة ببعضها كأنها لصّقت بصمغ كثيف وأصبحت قطعة واحدة ، كتلة شعر متراصة لا تتململ ، حتى لو حرّكت رأسها بقوة . وربما أمي التي حرصت على ضبط تفاصيل ليلة العرس ، بدقة متناهية ، أوحت لها بكل هذا النظام الصارم ، في أبسط التفاصيل ، دقة ديكورات غرف العرس التي لم يجرؤ أحد على لمسها أو تغيير أمكنتها ، حتى أعمدة السرير ما زالت مغطاة بورق المصانع الشفاف وكأنه معروض للبيع وليس مهيأً لليلة العرس . وتألقت المفاتيح النحاسية الصقيلة في مغالق خزانة الثياب وطاولة الزينة والصناديق الأخرى . ولم تمتد يدا أمي لإزالة الورق الشفاف ، اللاصق بالمرآة المدّورة ، لغرض الحفاظ على نضارتها أعواماً طويلة ، لكنها بدت كمرآة قديمة تعّرضت لأشعة الشمس أو من كثرة التحديق فيها لمدة من الزمن . وحرصت أمي على تلبيس المذياع الخشبي الكبير ثوباً مطرزاً

من قماش القديفة السميك ، مرسومة عليه يد كبيرة ، تتوسطها عين مفتوحة لصدّ نظرات الحاسدين والمتطفلين ، وزيادة في طقوسها أركنت فوقه صندوقا مليئاً بالأحجية الملفوفة بالورق والقماش والجلد . . فيما وضعت كتاب القرآن الضخم ، المذّهب ، والمكسّو بالحرير الأخضر على رّف خشبي شاهق إغراقاً في السّمو والتقدير .

تناهى الى سمعه ضجيج أنثوي في صحن المنزل ، ورائحة شواء غيّرت طعم الهواء داخل غرفته ، فقد أشعلت أمي مراجل الحمام وزودته بالزيت الأسود ، لتسخين جدرانه وأرضيته ، فلا بد للعريسين أن يغتسلا في هذا الصباح بعد ليلة العرس ، وأحضرت خروفاً ، بعد سلخه وتنظيفه ، أجلت أكله لهذا اليوم ليترطب لحمه وتنجلي عنه الدماء . إنه العرس لا محالة . وبعد أن فاحت رائحة الشواء ، المقززة في الصباح الباكر ، نهضت شيرين من السرير وتكورت على الكرسي المنتصب قبالة مرآة زينتها ، ينبعث منها نحيب مكبوت ، دون أن تعبأ بالتواجد الى جواره على السرير ، قبل اليقظة النهائية ، وما تزال تلقي نظرات الإعجاب على شعرها المصفوف ، المتألق باصفراره ، في قلب المرآة ، ولم تجد في حركاتها العبثية إلاّ أن تمّد يدها الى المرآة المدوّرة ، وتمزق بأظفارها الطويلة الحادة صفحة الورق الشفاف الذي يغطي المرآة مما أحدث شرخاً فيها ، لكنها كشفت عن طبقة المرآة الصقيلة ، فظهر شعرها أكثر تألقاً واشعاعاً من السابق حتى إنها لم تتمكن من اخفاء إبتسامة الإعجاب بالنفس .

نزل عبد الرحمن من سريره ، متعثراً بأطراف دشداشته البيضاء ، ودقق النظر في المرآة التي أزيح عنها الورق الشفاف ، فلاحظ آثار أظفارها العصبّية ، المهتاجة ، أحدثت شرخاً في المرآة كأنها إشارة خفيّة لأنفصال عالمين متأهبين للصراع القادم ، وبعجالة عاد من شروده وسألها :

- هل رأيتِ الكابوس مثلي؟!!

اندهشت شيرين لهذا السؤال الذي خرج من فمه على شكل تمتمات متقطّعة ، لم تفهم ماذا كان يقصد في حين تخيّل هو بأن كابوسه انتقل الى رأسها ، متوهما بأن الزوجين يريان الأحلام والكوابيس ذاتها . . ما داما ينامان على وسادة واحدة . ثم لعن هذا النوع من الاسرة العالية ، ذا الأعمدة الحديدية المزركشة بحلقات صفراء ، المصنوع خصيصاً للنواميس البيضاء ، المنسوجة من القماش المخملي الهندي الذي تتحول في لحظة من لحظات اللّذة الى هالة بيضاء ، لا لكي تمنع دخول الحشرات التائهة ، الباحثة عن هاجس تطمين غذائها ، الدم البشري فحسب ، بل لتكوّن عالماً مصغراً يحمي العريسين من الآخرين في أجمل أوقات الالتقاء ، خلوة الجسدين . عاد الى مخبئه الدافئ ، بعد تلاشي دويّ القطارات الصباحية الهاربة الى جبهات القتال في أقاليم الشمال والجنوب . وفي الواقع لم يكن ذلك الدوّي سوى ثمالة الإيقاع المنتظم للقطارات الليلية ، التي ظلت عالقة في رأسه ، متذكّراً إياها في هذه اللحظة بالذات . وبحركة متشنجّة ، إن لم تكن جنونية ، طلب منها الصعود الى السرير وترك شياطين المرآة ، التي تعكس الوجوه المكرّرة ، وتفرس عميقاً في عينيها نصف المغمضتين ، فرأى بقايا أصباغ الطلاء والكحل الأسود ، ممتزجة بالدموع ، التي انحصرت داخل الحدقتين ، رافضة الخروج ، وتساءل في سرّه :

- لماذا تبكين شيرين؟!

كان وحده يعرف سرّ تلك الدموع المترددة ، التي تحمل في مزيجها المالح ، حيرة أنثى ، وشبق محتشم ، يظهر ويختفي ، ويفشل في التعبير عن نفسه ، وراح هو يبحث عن دموعه المحصورة ، التي يطبق عليها بجفنيه ، ولا يريدها أن تفضح رجولته . إنها المرّة الأولى التي نام فيها بعيداً عن أحضان أمي ، وبالأحرى استبدلها بامرأة أخرى ، جاءت

تبحث عن الرجل المختبئ في أعماقه ، قريباً من المدفأة النفطية المعطّلة وقت الربيع ، تذكر كيف كان ينام مع أمي ، مفترشين الأرض ، وكان عليه أن ينتظر أعواماً طويلة سرير العرس الذي جلبته أمي من بغداد ، على ظهر حافلة ، الى هذه البقعة النائية ، مدينتنا ، احتفاءً بهذا اليوم ، لذا كان عليه أن يتصرف مثل سيد مطلق ذي جاه لهذه الغرفة ، فهو الرجل الوحيد هنا ، إذا لم نقل الرجل الوحيد على الأرض . ولاح له وجه أمي ، التي باركت زواجه بدعاءاتها وصلواتها عند بدء الليلة ، لكنه كان يتمنى ، كأي طفل نزق ، أن تنام معهما على سرير الزوجية لكنه شعر بالخجل من هذا التفكير ، فالعريس وحيد ، غريق في بحر ، يبحث عن قشة الانقاذ ، وسط زبد أبيض طاف ، عن رعشة بعيدة مختبئة في مكان ما من جسد شيرين ، في هذه اللّجّة العمياء ، اللذة المغلقة على نفسها ، ترك وساوسه قائلاً بلهجة يشوبها اعتذار باطني مرير :

- تعبان هذه الليلة!

وفاضت شفتاه بالخجل ، وأضاف :

- سأحاول في الليلة القادمة!

واحتقنت ملامح وجهه ، وتقلصّت عضلاته ، كأن الدماء جفّت في عروقه ، وهو يتذكر لائحة التحذيرات التي تلّقنها ، تخوفاً من الليلة الأولى ، وتطيّر جميع الرجال ، وأشدهم بطشاً وفحولة ، من العتبة الأولى ، ورنّت في أذنه عصارة من حروف وكلمات تفصح عن جملة بليغة واحدة : الحذار من الليلة الأولى ، شيطانة السحر ، واغواء الأنثى للذكر ، ومدجّنة العتاة ، وأمسك بيديها النديتين ، المتعرقتين ، بفعل الحركات المتشنجّة ، التي لا تتوقف ، فطأطأت رأسها الى الأرض ، وعادت الى طاولة الزينة ، وانهمكت بتقشير ظاهر أظفارها المطلية بالصبغ الاحمر ، بمقص صغير ، فأزعجته تلك الحركات ، وصرخ في

وجهها ، بكلمات مبهمة ، في محاولة لايقافها عن تلك الحركة ، ثم مضى كل واحد منهما كأنما يوغلان في ممرات مظلمة ، عسيرة ، فيما أطبقت الرعشة على لسانيهما ، وجعلتهما يتحدثان باشارات الأصابع ، ويغرقان في بحر كلمات عاجزة ، لا معنى لهما إزاء الفعل . . .

٣

في إطلالة أول صباح ، بعد هذا التاريخ المدّون ، ليلة العرس ، هرعت أمي ، وبقايا نوم عالق في عينيها ، تحمل بيديها مبخّرة فضيّة ، اقتحمت غرفتيهما ، دون أن تطرق الباب ، ودلفت الى السرير مباشرة ، وقرّبت المبخرة اللاهبة ، بأحجار الفحم ، الى أنفه حيث التهم ، دون إرادته ، كل الدخان الخارج على شكل دوائر رمادية حتى إنتفخ منخراه ، وعندما لاحظت تعبه الواهن ، رشقت وجهه بماء بارد ، نثرته من أطراف أصابعها بعد أن غرفته من الطاسة الصغيرة ، وحين لم يفق من غيبوبته ، أخذت جرعة كبيرة ونثرته من فمها ، في صفحة وجهه ، على شكل تيار مائي جارف ، فأفاق صارخاً :

- شيرين . . شيرين!

التفتت إليها أمي غاضبة عندما رأتها ما تزال منهمكة بتقشير أظفارها من الأصباغ ، دون أن تعبأ بابنها الذي حشر جسده الضئيل في حجرها مذعوراً ، وهو يصحح كلمات صرخته :

- أمي . . أمي!

وسارعت أمي بتمتمة آيات قرآنية ناقصة ، ومغلوطة ، ثم لملمت أذيال وشاحها المبعثر ودخان مبخرتها وغادرت الغرفة بارتباك ، تهزّ رأسها ، بنوع من فهم الليلة الأولى لعروس عذراء ، وتبعت شيرين خطواتها ، ينضح منها عرق الخجل ، الممزوج بالعطر الفرنسي الرخيص «ريف دور» ، باعثاً رائحة زنخة إثر اختلاطها بدخان المبخرة ، كأنه رائحة عرق حيوان برّي مذعور ، فيما خرج عبد الرحمن الى صحن المنزل ، يتأمل ظله الواهن على الجدران البيض ، التي حمته من الآخرين سنوات طويلة ، وسرعان ما أدرك ان هذه الليلة انفجرت مثل فقاعة صابون هشّة ، ولم يبق منها سوى رذاذ بليد ذاب على وجهه ، مكتشفاً الدرس الأول .

هكذا وجد نفسه وحيداً ، وللمرة الأولى ، في مواجهة ظلام هذه الليلة ، وربما الليالي المقبلة ، بين جدران أربعة وسقف شاهق ، وكأنه قائد مهزوم يقف أمام جيشه المنكسّر ، متبجحاً بكلمات الانتصار المجّوفة التي يعرف بنفسه حقيقتها أكثر من الآخرين . وبعد أن أفرغ ما انحصر في أحشائه من بول أصفر خائف ، عاد الى غرفته بعد أن طاف بعينيه على الغرف الأخرى ، مبصراً أعمدة بخار تتصاعد من نافذة غرفة أمي المجاورة ، لكن الشاي الساخن فقد مذاقه منذ هذا الصباح ، وتحول الى طعم الصدأ في باطن حلقه . ثم نظر الى الأثاث الجديد الجامد وسط الغرفة ، فاكتشف بلادة الأشياء الرخيصة الصنع ، وهشاشتها المخيفة ، تحت البريق اللّماع ، وما زالت الشراشف البيضاء ، ناصعة ، مكوية باعتناء ، كما لو أن جسدين ميتين أمضيا ليلتهما الأخيرة على ذلك السرير . وبدت قلائد زوجته وحليها وأساورها وخواتمها الذهبية ، مصفّفة بانتظام على طاولة الزينة دون أن تتبعثر على أرضية الغرفة وزواياها كما كان يتخيلها في لحظة هياج الليلة الأولى .

وهكذا بدا له كل شيء باعثاً على نظام دقيق الا داخله الذي يعج بفوضى عارمة . نظر الى المرآة ، دون أن يتقصّد ذلك ، فانعكس وجهه الممتقع بتقاطيعه ، الهزيلة ، المنهارة ، فتجرأ وتلمس البثور الحمراء التي انتشرت على وجهه منذ الليلة الماضية ، وحاول أن ينزع قشورها ، فوجدها ممتلئة بالقيح الأبيض ، ظلّ مسمراً في مكانه لا يصّدق المرآة ، وكأنه ينظر الى وجه رجل غريب ، تصّلب داخل ثيابه البيضاء الجديدة ، وهو يفكر بالعبارة الخبيثة ، الفظّة ، التي نطقت بها زوجته في الليلة الفائتة :

- أنت . . .

لم يكن يرغب في أن يتذكر بقية الكلام الجارح احتراما لنفسه ولأمه ، وفكر في أن يصفعها بكف يشّل عروق وجهها ، لكنه سيطر على حماسته المندفعة ، عندما تذكر مسؤوليته الرجولية في ليلة العرس ، وتساءل في حيرة :

- أينفذ رغبته في صفّعها أم يتراجع؟!

ثم تردّدت على أذنه لائحة النصائح وتلقينات الرجال المتمرسين في الزواج : يجب أن تهان المرأة في الليلة الأولى! ثم سخر من هذه الترهات الشعبية واعتبرها إحدى الآفات التي تنخر رؤوس البشر المحيطين به ، وذهب الى النافذة ، واضعاً أنفه على زجاج النافذة الرطب ، طابعاً انفاً من ضباب فمه ، وهو يبحث عن نسمة هواء عابرة ، وسط هواء فاسد هجم على الغرفة ، وربما كان بقايا رائحة شواء لحم الخروف ، ثم مضى الى خزانة الثياب ، يفتش عن شيء يجهله ، سرعان ما أدرك عبثية أفعاله التي يحاول عبرها إخفاء شيء جوهري في داخله :

- ما هو يا ترى؟

-لا أحد يعلم!

إستلقى على أريكة ضائعة في زاوية الغرفة ، مفكراً بالوجوه التي يراها عند منتصف النهار ، وهي تصهر كل كلمات التهاني القلبية ، وتحولها الى لوم ولوعة وخبث وتهكم ، لكن أمي المتفائلة على الدوام ، انهمكت بالصلاة له ، رافعة يدها الى الأعلى ، وطالبة أن تنشق السماء ، ويتدلى منها المستحيل! في هذه الأثناء ، لم يتحمل عبد الرحمن دعاء أمي الضعيف ، المهين ، حتى أمام خالق البشر ، فهرع الى غرفتها ، وانتزع بغضب بندقية أبي الصدئة من الجدار ، فتهاوت غيمة غبار مخدّرة وتناثرت على أواني الشاي الموضوعة على الأرضية بحيث إضطرت أمي الى تغطيتها بمنديل ، ثم خرج الى صحن المنزل ، ووقف منتصباً كحارس قلعة ، حاول أن يحرّك زناد البندقية ، دون جدوى ، اذ جفّ في قنواتها الزيت ، ولم ينج من الصدأ الزاحف سوى الأخمص الخشبي . قلص عضلات وجهه أمام الشمس ، محاولاً بأصابعه المرتجفة ، الضغط على الزناد اليدوي ، دون أن تتحرك أقسامها الداخلية ، فرفع فوهة البندقية الى بطنه في محاولة لبّقرها على الأقل ، وبعد أن فشل في ذلك ، وجّه فوهتها صوب الأرض واتكأ عليها ، كشيخ واهن يتكئ على عصا ، متخيلاً انطلاق الرصاصة من مغارة البندقية لتستقر في قلبه ، لكن بندقية أبي القديمة خذلته كما خذلته ليلة العرس ، وما إن رفع رأسه من الأرض حتى رآنا نحن الثلاثة ، أمي وشيرين وأنا ، نقف على عتبة غرفته ، ونراقب حركاته ، فأجهش بالبكاء ، تاركاً بندقية أبي تتهاوى من قبضته على الأرض ، وحينئذ هرعنا اليه ، واقتدناه الى غرفته ، اعتصرت ملامح وجه أمي حزناً وارتباكاً فيما ارتسمت على وجه شيرين علامات التهكم والسخرية! نادتني أمي بصوت مبحوح ، وغمزت لي من عينها اليسرى كأنما أرادت أن تبوح لي بسّر ، بعيداً عن مساحة التقاط آذان العريسين . سارعت في تتبع خطواتها المتعجلة ، الخجولة ، أركز نظري على ثوبها الطويل ،

الاطراف ، بأذياله المهترئة على الأرض ، حتى دخولها الغرفة . لمحت صورة أبي الشمسية ، المطوقة بإطار خشبي غليظ ، على الجدار بمسمار بارز . ثم تسلقت كرسيا وأعدت تعليق بندقيته القديمة في مكانها ، مثل ديكور يضفي على الغرفة روح أبي . . ومصيره . تذكرت ، دون إرادتي ، يوم اغتياله المشؤوم ، الذي ما زال يلاحقنا بأنفاسه اللاهثة حتى هذه اللحظة ، وبينما كنت أنصت الى صوت قاتل أبي وحشرجته الحيوانية ، بدأت أمي ترفع صوتها في محاولة منها لجذب إنتباهي عن صورة أبي وبندقيته ، وحين خفضت رأسي نحوها ، لسماعها بشكل أفضل ، قبلتني على وجهي ، وهمست في أذني ، بشفتين مرتعشتين ، عاجزتين عن ضبط مخارج الكلمات :

- افعل شيئا من أجل أخيك!

آنذاك وجدت الفرصة لمعاتبتها :

- ولماذا لم تستدعني قبل العرس؟!

أجابتني بصوت يشوبه مرارة ولوعة :

- العرس لم ينته بعد . . .

٤

أجل ، لم ينته العرس بعد ، وربما قد تطول هذه الليلة ، لا أعرف بالضبط ، ولكن ما أعرفه ، هو أن عرس أخي جمع شمل عائلتنا الصغيرة المبعثرة ، بين وظيفتي في قرية نائية ، وانتظار أخي في جبهة حرب حدودية ، وعزلة أمي في منزلنا .

– ما الذي يمكن أن أتعرف عليه أكثر من ذلك ، أكثر مما حدث أمام عينيّ؟

دهشت لهذا العرس الذي تحول بين استلامي لبرقية أمي ، ورحلة القطار الى مدينتنا ، الى مأتم جنائزي ، دون ميت ، وخصوصا منظر النساء القادمات بعباءاتهن السوداء ، كأنهن يرتدين أثواب الحداد . والشموع التي أوقدتها أمي بسبب انقطاع التيار الكهربائي إثر قصف القنابل المستمر ، ألقى بضيائه الكئيب على وجه العريسين بحيث أدركت ، دون استفسار أو همس البوح بالأسرار ، بأن شيئاً خارقاً قد حدث في الليلة الماضية ، وقلب بهجة العرس الى حزن الموت ،

وضحكات الآخرين ، هي الأخرى ، كانت مغلّفة بشيء مصطنع ، من تهكم ودهشة وانفعال ، عسير الفهم ، لكن صوت أمي المنبعث من غرفتها ، أنار لي كل شيء ، بكلمات غير مفهومة ، غير مترابطة ، متدفقة كجملة واحدة ، تمتمات ، أنين ، دعاءات ، ابتهالات ، صلوات ، هذا الإيقاع الصوتي الذي لا يمكن الاّ أن يكون نكهة أمي وروحها ، أخرجني من غرفتي في الليلة التالية ، لأنصت من وراء باب غرفتها ، الى حديثها ، المخنوق ، الباعث على الحيرة ، حيرة أخي أمام شيرين : ابني ، ابني ، العن الشيطان واخرج من سجنك ها هي ذي شيرين تنتظرك اهجم عليها قل لها كلاماً جميلاً داعبها مسّد شعرها انفخ أنفاسك فيها قل لها أنت أقوى رجل على الأرض هكذا تصورتك منذ ولادتك أعرف أن بابك مغلق الآن وأعرف أنهم سحروا لك في غيابي لكنك تعرف بأني انتظرت يوم عرسك يوما بعد يوم لحظة بعد لحظة هل يرضيك أن تخيّب آمالي لا أعتقد أنك ستفعل ذلك . أنت آخر من تبقى لي قل لي لماذا أنت خائف منها أتخاف من المرأة أتخاف من شيرين من جسدها الذي أصبح الآن ملكك افعل شيئا من أجلي فكّر قليلاً بالعائلة بالضيوف بي بأخيك الكبير بزوجتك ابني ، ابني قل لي ما الذي جرى ما الذي حدث لأرى وجهك بهذا الحزن في يوم فرحك ما الذي مات فيك قل لي سأجلب لك كل عقاقير العالم لكي تشفى كل أدوية الأرض لتتغلب على هذا العسر لا تقل انها أوهام أعرف جيداً بماذا تفكّر سأذهب الى قائد الثكنة العسكرية وأمدّد اجازة العرس حتى تنتصر أقول لهم بأني أحارب مكانك لكي تبقى بجوار شيرين وتفّض بكارتها وتلطخ الشراشف البيضاء كلها بالدماء . دماء حتى يرى الجميع الدماء العن الشيطان واخرج من سجنك ها هي شيرين ذي تنتظرك تنتظرك!

الشهر الثاني

التلصص من ثقب غشاء البكارة

حزيران

١

بدأ الربيع ينحسر أمام القيظ الآتي ، وكنا نأمل أن يحمل في طياته انعتاق جسد أخي ، ولعله يذيب جسدي العريسين في بوتقة واحدة ، وينزع عنهما الجلّد الميت الذي غلّف غرائزنا كلها بسيل من المعتقدات والأعراف ، فتساءلنا بكل سذاجة :

– هل يمكن أن يتمزق غشاء بكارتها في حرارة الجسد؟!

لم نعد نعرف من يطرح الأسئلة ومَنْ يجيب ، إذ استولى علينا هاجس فضّ البكارة تماماً ، وأصبح جزءاً من حمى أجسادنا جميعاً ، رغم بعدنا ، أمي وأنا ، عن هذا الموضوع . ومَنْ يدري؟ اننا أيضا بشر ، أمي ختمت حياتها بستار حديد ، وهي في عمر الثلاثين ، أي منذ اغتيال أبي ، وأنا أفضل أن أنسى نفسي ، نوع من الرجل التائه .

بين أمي التي قبرت شهواتها في أعراف الآخرين ، وبيني ، الجاهل بالمرأة ، اندفعنا نحن الإثنين ،في رحلتنا ، كل من جانبه ، وحدَه كأننا سلكنا طريقين متنافرين ، لكنهما يصلان الى الهدف نفسه ، دون أن

يتمكن أحدنا من الإفصاح عن رحلته . لكل منا خططه السّرية ، المتواصلة مع ثغرات نفسه . فأي بحث من هذا النوع لا يمكن أن ينفذ دون تجاربنا الحيّة . لكن في لحظة من لحظات اليأس كنت أقرر التخلي عن هذه المهمة ، والرحيل الى قريتي ، رغم أنني بعثت بطلبي لأخذ إجازة بدون راتب لأجل مفتوح ، وحصلت من إدارة المدرسة التي أعمل فيها على أمر الموافقة ، بعد أن تعهدت أمي بأنها ستصرف ما ادخرته على معيشتنا نحن الأربعة في المنزل . أمي لم تيأس لحظة واحدة ، واندفعنا نتلصص على العريسين من ثقب حفرته أمي في لحظة شيطانية خبيثة ، بجدار غرفتها الملاصق لغرفة العريسين . دون أن يعرف أحدنا بالأخرى ، اكتشفت ثقب الجدار عن طريق المصادفة . فلم تكن لحظات الشك والريبة عند الاكتشاف سهلة لأي منّا ، بين تبادل النظرات الصامتة وانتظار المعجزة الخارقة . انتظرنا أن يخرج أخي من هذا العجز المطبق ، المحيّر لطباعنا البشرية . وفي لحظات محمومة ، تخيلنا أن ينفخ فيه شيطان أو مجنون أو إله أو أي مارد آخر ، ليقوى على اختراق قبّة الأنوثة ، طمأنينة أجسادنا الأبدية ، ولحسن الحظ ، أن غشاء البكارة ليس من ابتكار الله بل من ابتكار غرائزنا . فلو كان من ابتكار الله لما كان له كل هذه القيمة . لكن أمي حاولت أن تهرب من طرح السؤال التالي مراراً :

- متى يفضّ عبد الرحمن بكارتها؟

لم يكن يسّر أمي إلحاحي على دخول غرفتها مراراً وبشكل سرّي . لذا بدأت أسحب نفسي من هذه المغامرة اللعينة ، لكني فوجئت هذا الصباح بأمي تصرخ :

- ما هذه الهالة البيضاء؟

تراءى لها غشاء رقيق ، أبيض ، مخملي ، شفاف ، غطى الثقب الذي كانت تتلصص منه ، بل كاد يغطي كل رقعة البصر ، ويفيض

على جسدي العريسين العاريين ، بحيث نكاد لا نراهما . ثم أضافت بارتباك :

- يا الهي . . هذا كفن الموت؟!

كنا ننظر من ثقب الجدار دون أن يعرف أحدنا بالآخر ، كمحاولة يائسة للدخول في خفايا جسديهما .

- لكن ماذا كنا ننتظر؟

بدأت شكوك أمي تزداد كلما دخلت الى غرفتها وكأنها اكتشفت بأني تعرفت على سرّ ثقب الجدار ، لكنني تمكنت ، وبمهارة الاقناع والمراوغة ، أن أغير مجرى قلقها الى طمأنينة هادئة ، وجعلتها تعتقد بأن ما نقوم به هو من أجل إخراج ابنها من محنته ، رغم عملنا التجسسي الخسيس . لكننا فكرنا :

- ماذا يحصل لو اكتشف عبد الرحمن الأمر؟

يتجسس عليه أعز من يملك في الدنيا ، أمه وأخوه ، بعيون جامدة وأفواه مفتوحة . انفجرت الدموع في عينيّ أمي ، وخرج منها نحيب يفصح عن حكمة باطنية ، فهمت منها أن مَنْ يتدخل في شؤون الآخرين يدسّ أنفه في عفونة نفسه! الأهل ، القبيلة ، الأصدقاء ، الأعداء ، والآخرون ، يتدفقون على منزلنا ليتلصصوا على حياة العريسين . ولكل واحد منهم فتوى ، يواصلون حياتهم ، ويتغذون بأخبار الآخرين ، حشرات طفيلية تعيش على دماء الآخرين ، تملأ معدتها بدماء نقيّة ، وتصبّها في عروق الآخرين دماءً فاسدة بعد أن تصهره في أحشائها الى ما لا نهاية ، وكلما أصابت ضحية ، تتفتح شهيتها لضحية أخرى ، وفي بحثها المحموم عن الضحايا لا تجد في النهاية سوى أقرب الناس اليها ، وحين لا تجدهم تصبّها في جسدها ثانية لتموت مسمومة ، هذا السمّ تسلّل الينا خفية . ثم حاولت إقناع نفسي ، شأني شأن جميع المتلصصين على الأرض ، بأني أقوم بعمل

إنساني ، وهو مثل سائر الأوهام المحّركة للحياة ، لكن تلصصنا على العريسين تحوّل الى أكبر خطيئة نقترفها سوية ، أمي وأنا ، وهي ليست لعبة كما توهمنا بادئ الأمر!

٢

كان زواج عبد الرحمن أكبر تعويض لأمي التي لم تحصد من السنوات العجاف ، سوى الصبر والفاقة والإيمان . لحظة واحدة تهيمن على إيقاع كل هذا الزمن الماضي ، وهي اللحظة التي علمت بها بنبأ اغتيال أبي ، ومنذ ذلك الحين ، ترفض الاقتران برجل آخر ، بل لم يكن يعني لها أي رجل على الأرض غير أبي . والحماس الذي ادخرته في نفسها لتزويجي ، أظهرته مرّة واحدة ، وبقوة هائلة في زواج أخي الصغير ، وكأنها لا تمتلك سوى ابنٍ واحدٍ ، حتى خيّل إليّ بأنني لم أخرج من رحمها أبداً . فيما كان القدر يرسم خطته اللعينة بسرية تامة لهذا الزواج ، ويلقي بظلاله المحّذرة ، والمتنبئة ، والمريضة على وجوهنا ، لتّذكرنا بعبء الآخر

– مَنْ هو هذا الآخر يا ترى؟!

وأجبت نفسي :

– هل هو أخي الصغير أم آلاف الرجال العاجزين أمثاله؟!

- مَنْ كان يتخيّل هذا العجز وسطوته؟!

لا أحد! لا أحد كان يفكر بأن تدخل ليلة عرسه شهرها الثاني ، وتتحول الى جرثومة تعشّشُ في رؤوس المدينة بأكملها . وبدأت الألسن الشبقيّة ، تتساءل باستمرار :

- ماذا فعل عبد الرحمن؟ أين وصل؟ لماذا لا يطلّقها؟ لماذا لا يذهب الى أطباء بغداد؟ لماذا لا يزور الأئمة؟!

لكن عبد الرحمن حسم أمره وأودع مفاتيح حياته الزوجية بيد أمي ، التي لم تتوقف عن رعايته ، بل واصلت كما كانت تفعل أثناء عزوبته ، تهيئ له أطباق الطعام ، ترافقه الى سريره ، تقرأ عليه آية قرآنية ، وتضع جرة الماء في غرفته .

- ولكن هل هو بحاجة الى أمي الآن؟

لم يكن يعرف عن شيرين بقدر ما كان يعرف عن محارة ضائعة في عرض البحر ، هذه المرأة المجهولة ، العاقلة ، النبيلة ، التي طالما أذعن لإغراءاتها ونزواتها ، وفي هذه الحركة الدائرية في الانتقال من كلمة المرأة الى المرأة ذاتها ، كان ينتقل من سرّ غامض الى سرّ أكثر غموضاً .

- مَنْ يقدر أن يخبره عن هذا السّر غير ليلة هيجانية ، ليلة العرس؟!

أمي ، أحكمت سيطرتها على هذيانات الجسد ، ولم تعد كلماتها الساذجة وأوصافها للمرأة مواويل وتراتيل تشوبها رتابة قاتلة ، وهو يتكوّر كطفل كسيح في حجرها الدافئ ، يطرب لهذا اللحن ويطلق العنان لأحلامه . وفي لحظة سبات مذهلة ، يتخيّل عروسه ، تركض نحوه ، بعد أن رمت ألعابها ، وسرعان ما يفتح عينيه ينهض من حجر أمي ، مذعوراً ، يلوذ بالركض ، ويلقي بنظراته الطويلة الى أعماق البئر الكائن في صحن منزلنا ، والمحشو بألغاز وجوده بل وربما بألغاز هذه الحرب التي تدّثر عجزه بآلاف الأغطية .

٣

لا . . أمي لن تسكت ، أبداً ، ولم تستسلم بهذه البساطة لهذا القدر . قالت لي بنظرة ثاقبة :

- اسمع يا ابني دعّ الآخرين وشأنهم ، سأتدبر الأمر بنفسي .

وبدأت تخطط في سرها لأن يقع أحدهما في غرام الآخر ، رغم أنها لم تكن واثقة لا من رجولة عبد الرحمن ولا من أنوثة شيرين . وكلما فكرت بهما انتشرت صفحة مخملية ، ناصعة البياض ، مثل مزرعة قطن ، عذراء ، كثيفة ، في صحن المنزل . هنا تكمن متاهة أخي ، وكلما قطع ميلاً في هذه المزرعة ، بزغت في وجهه آلاف الأميال ، يتصاعد منها صوت حوار متقطع :

- العجز لا يأتي من الرجل بل من المرأة؟

- كيف؟!

- المرأة قادرة على إحياء الرجل الميت بشهواتها .

- الرجل الميت!

- بكلمات الشبق .
- أليس هذا فحشاً .
- أفواههن شبق لا نهائي .
- الاّ تخجلن من هذا الكلام .
- الانسان فاحش .
- ومتى يتطهّر؟
- عندما يموت!

كانت النسوة القادمات الى منزلنا ، يردّدن تلك الهذيانات دون توقف ، رغبات مخنوقة ، تحوم في رؤوسهن . لكن شيرين لا تعرف كلمات الشبق ، وحتى عندما تعلمتها عن ظهر قلب من النسوة البارعات ، كانت تخرج من فمها جامدة ، ميتة ، لا تزعزع شيئا في أعماقه ، كلمات مشلولة ، تساقطت قشورها وانكشفت نواتها الصلدة التي لا تتكسر بين فكي الأسنان .

٥

ما زال رنين نصائح النسوة عالقاً في ثنايا رأس أمي ، تمتصها من أفواههن في النهار ، وتبعثه على شكل أزيز حشرات منقرضة في الليل ، وبدأت شيئاً فشيئاً تخزُ أذن عبد الرحمن ، وكأنه قابع في تلك البئر ويستمع لأصواته المضخمة والمضاعفة ، يجهد نفسه في فهم تلك الكائنات الملفوفة ، بثياب الحداد السوداء ، وتنبعث منهن الهذيانات اللانهائية .

ردّد عبد الرحمن في نفسه :

- الى متى يستمر هذا الهذيان؟!

ثم صرخ كمن يتحدى :

- الموت وحده سيوقف هذا الهذيان .

في الليل لمحت شبح أمي ، واقفة في صحن المنزل ، تكشف عن شعر رأسها وترفع يديها الى السماء ، تتضرع وتتمتم بدعاء غريب من نوعه ، سمعته للمرة الأولى في حياتي :

- يا إلهي ابعث البرق في جسد ابني!

وقفت وراء النافذة ، منذهلاً ، أنتظر انتهاء دعائها الذي بدأ صداه يتردد في الغرف كلها . ولم تمر دقائق على دعائها حتى رعدت السماء ، وانطلق قوس قزح ، راسماً في فناء المنزل ، شكل سيف متألق تحت وهج النيران ، وتعالت من أعماقها ضحكة مدّوية ، ثم حرّكت الرياح وشاحها عالياً وتطاير من رأسها ، وبدأ المطر النازل يبلّل أثوابها ، وبعد مرور لحظات أسرعت الى غرفتها ، فلم أتمكن من السيطرة على أعصابي ، فهرعت اليها ، وما إن فتحت باب غرفتها حتى باغتتني قائلة :

- أرأيت أول المعجزة ، مطر في حزيران!

أطبق الصمت عليّ واكتفيت بهّز رأسي ، فيما راحت تفرك شعر رأسها المبلل بمنشفة قديمة . ولم يكن المطر وهميا اذ نضح سقف غرفتها بقطرات المطر ، فسارعت بوضع صينية متروكة تحت قبة السقف ، وراح حديثها يمتزج برنين تساقط المطر ، فعاجلتها بالقول :

- يبدو أن الله استجاب الى دعائك!

هزّت رأسها هي الأخرى ، وبعد أن جفّفت شعر رأسها ، سحبت فراشها الى بقعة جافة ، وأطفأت بنفخة سريعة من فمها شعلة الفانوس ، وخلدت الى النوم ، فانتهزت الفرصة لألقي نظرة على العريسين عبر ثقب الجدار فوجدته قد التحم بالجدار واختفى نهائيا ، فأدركت حينئذ بأن حسّ المرأة الغريزي لا يخطئ أبداً .

الشهر الثالث

بين المرئي واللامرئي

تموز

١

هكذا إذن تسلّل الحزن الى منزلنا خلسة ، جاء على شكل إيماءة ورقة صفراء متطايرة من شجرة قريبة ، فاهتز أنين أمي لتلك الإيماءة ، وأعلن عن نفسه مكبوتاً تارة وعلنياً تارة أخرى ، ورغم وهنه الواضح سيطر على إيقاع الغرف كلها ، التي شأنها شأن البشر ، لها حياتها وعاداتها الباطنية ، طبقاً للمواسم والفصول ، وكثيراً ما تأخذ شكل المرء الذي يقطنها ويتكيف داخلها ، مثلما يعتاد رجل بدائي على كهفه أو أرستقراطي على قصره أو صعلوك على جحره . لكنني منذ وصولي الى هنا شعرت بصعوبة التكيّف مع الغرفة التي سكنتها منذ ما يقرب من أربعة عشر عاماً ، كنت أتخيلها ردهة واسعة ، دقّقت النظر فيها وتفحّصت جدرانها . وكلما تقدم الزمن ، شعرت بضرورة بقائي الى جانب أخي في محنته ، بعد أن استدرج أمي وزوجته الى هذه المحنة ، بدأ كل واحد منهما يقدم لي اعتذاره الباطني ، قالت أمي بحسرة :

– أتمنى الاّ تبدّد حياتك معنا!

كان صيفاً حاراً جمعنا في ردهة واسعة ، ثبتت أمي صناديق مستطيلة ، مليئة بالشوك ، على نوافذها الأربع ، لكي تبرّد الهواء الذي كان يهّب على شكل عاصفة سوداء ، فقلت في نفسي :

- عليّ أن أفعل شيئاً من أجل أخي .

ثم أضفت :

- وما ذنب شيرين المسجونة معنا منذ ثلاثة أشهر .

بادلتني شيرين نظرات مغرية لم يفهمها سوانا ، فشعرت بأن ثمة مصالحة جرّت بينهما بعد أن تشاجرتا حول قضية بيع ذهبها أو رهنه لتزويد أخي بالعلاج اللازم في بغداد ، لكن شيرين رفضت رفضاً قاطعاً ، بأن العلاج سيأتي منهما ذات يوم . شجار النساء ومصالحاتهن يبقيان سرّاً من أسرارهن لا نفهمه نحن الرجال . ففي عصر كل يوم تجلسان على عتبة الباب وتفترشان سجادة رخيصة ، مصنوعة من أثواب بالية ، انفجرت ألوانها الغزيرة تضرب البصر ، ولم يشغلهما سوى الإنصات الى أحاديث المارّة التي تتطاير مقاطعها الأولى والأخيرة فيما تكملان معانيها في رأسيهما . نظرت شيرين الى أمي وقالت لها :

- لماذا لا يخرج عبد الرحمن الى المقهى؟!

وبصوت خافت أجابتها :

- كيف يخرج وهو هارب من الحرب منذ ثلاثة أشهر . .

وأضافت :

- اذا سأل أحد عنه قولي بأنه في الجبهة . . أولاد الحرام كثيرون وفرق الإعدام تحوم في كل مكان!

وفي تلك الأثناء مرّت سيارة جيب عسكرية من أمام المنزل ، فلملمتا أذيال عباءتيهما ودلستا الى المنزل ، ترتعشان من الخوف . ثم ذهبت شيرين الى الحمام ، وتعالى صوت تقيئها ، لحقتها أمي :

- هل أنت بخيّر . . ماذا أكلتِ؟!

ثم وقفت أمي فاغرة فمها :

- ربَّما تكونين حاملاً ياشيرين؟!

- حامل!

- أجل . . ينبغي أن آخذك الى الطبيب . . هذه هي المرة الثالثة التي تتقيئين بها . . .

ثم طلبت منها أن تكشف عن بطنها . .

وفجأة زغردت أمي بصوت عال جعلني أهرع اليها في الحمام فيما ظل عبد الرحمن ممدّداً على أريكّته يقرأ في كتاب ، أتى به أحد أصدقائه كهدية عرس غريبة ، أضحكت زوجته طيلة أيام ثلاثة ، فيما اعتبرها أخي أهم هدية عرس يستلمها . وهكذا بدّدت زغردة أمي شيئا من الحزن .

٢

كان ثمة شيء يختمر في رأس شيرين مثل دودة الخلّ التي تراوغ في الظهور الى السطح ، وبدأ أثره في ملامح وجهها . لحظات شرود وتأمل تنقلها الى عالم آخر . . فيما تركّز نظراتها نحو الغرفة المهملة التي خصصتها أمي كمخزن للأثاث الرثّ والمواد التالفة وأكياس الرّز الفائضة وبقايا كتبي القديمة . هذا ما لاحظته قبل أيام ، وفي هذه الليلة بالذات ، التي تصاعد ظلامها الأزرق ، وغطى نوافذ غرفنا ، لمحت شيرين تندس الى تلك الغرفة المهملة ، المتروكة ، بقامة منتصبة ، وذراعين ممدودتين باستقامة الى الأمام ، كأنها تسير في نومها . اعتقدت بأنها ذهبت اليها لجلب حاجة ما ، ولم تمرّ ساعات حتى فوجئت بطرقات حادة على باب غرفتي ، وحين فتحته وجدت أمي وأخي يرتجفان ، صرخت أمي :

- شيرين هربت!

اصفرّ وجه أخي بينما راحت أمي تضرب صدرها بكفها المفتوح

ضربات خفيفة ، في اشارة مبطنّة الى حدوث المأساة ، وهي تكرر :

- سوف تفضحنا!

حاولت أن أهدأ من روعيهما ، فأدخلتهما الى غرفتي لأشرح لهما كيف ينبغي أن نتعامل معها ، وقلت لهما :

- لا تقلقا . . شيرين في المخزن .

صرخت أمي بدهشة :

- في غرفة العناكب!

وبعد لحظات صمت أضافت :

- لكنها مسكونة بالشياطين!

كانت أمي تطلب كل مرّة القيام بجولة في غرف المنزل وفي كل مرّة تطلق حسرة استنكار أمام هذه الحجرة اللعينة .

- لماذا لعينة يا أمي؟

غضبت صارخة :

- يجب إخراجها من هذه الحجرة حالاً . . حالاً . . أفهمت؟!

خرجنا من غرفتي لنلقي نظرة على غرفة العناكب ، كما ألصقت أمي بها هذه التسمية ، التي ما انفكت تدمرنا الواحد تلو الآخر . وقفنا أمام تلك الحجرة وتلصصنا النظر من شقوق الباب الخشبي المهترىء ، فرأينا شيرين مستلقية على سرير ضيق صغير معبأ بالقش ، فيما تتدلى على صدرها العاري خيوط عناكب كثيفة ، مثل ثريات كريستالية أو عناقيد ثمار غريبة تتدلى من السماء ، حينئذ اطمأننّا لرؤيتها ، وصرخت أمي :

- هل تمضي هذه المجنونة الليلة في هذه الحجرة؟!

سكت عبد الرحمن ، حائراً ، مكتفّياً بأكل شفتيه ، وليّهما الى الأعلى والى الأسفل ، ومّد يده اليسرى ليمسح فمه ، من اللعاب السائل . بعد ذلك أقنعتهما أن إخراجها بالقوة لا يمكن أن يتمّ ،

وتعهّدت لهما بأنني سأقنعها بالخروج من هذه الحجرة في الصباح . غادر كل الى غرفته ، وبعد لحظات ، وما أن وضعت رأسي على السرير حتى سمعت ضجيجاً يصدر من تلك الحجرة ، هرعت إليها ، فرأيت عبد الرحمن يخرجها بالقوة ، ويجرها الى صحن المنزل ، وقد علق بشعر رأسها كومة من العناكب ، التي تألقت تحت ضوء القمر ، صرخت بأعلى صوتها ، واستيقظت أمي من جديد ، وحاولنا فصلهما ، ثم هرعت شيرين الى غرفة العناكب كآخر حصن لها ، بينما ذهب كل منا الى غرفته بانتظار الصباح .

منذ تلك اللحظة ، تبدّدت طمأنينة النوم ، متخيلاً بأن العناكب تحولت الى قوة مدّمرة تعصف برأس شيرين ، بل برؤوسنا جميعاً ، بحيث تغيرت ملامح وجهها ، وبدت أكثر شيخوخة من الماضي ، كأن الزمن في تلك الغرف أضاف مدى أطول مما يتصور عقل بشري ، وتساءلت :

- ما الذي حصل يا ترى هناك؟!

أتضافرت الشمس والقمر ، النهار والليل ، وجمعت أشعتها المبعثرة ، وألقتها في قاع الحجرة ، لتوقظ العناكب النائمة على جسدها ، بل وتنبّهنا بأن جهودنا الأنسانية ضائعة تحت ظل نسجها للخيوط كأي ماكنة صناعية ، لا تعرف التعب أو الإنهاك ، وهي تخطط لأصطياد حشرة كبيرة الحجم ، جاهلة ، بغرائزها الحيوانية العمياء ، بأن عليها أن تلّف خيوط شباكها ، حول الكرة الأرضية ، ببحارها ويابستها ، دورة كاملة ، لتقبض على جسد شيرين الأنثوي الملتهب ، لكنها على الرغم من ذلك ، لم تدرك حقيقة شيرين ، جسد يبدأ بشرارة اللّذة ورأس يخطط بكل مكر حواء ، كلما حركّته قتلت مئات الأفكار في رأس عبد الرحمن ، وتساءلت في ظلام غرفتي :

- ماذا يمكن أن تفعل العناكب لشيرين المعبّأة بالملذات والإغراءات

كلها؟!

هاهي ذي العناكب ، أترقبها من نافذة غرفتي ، شدّت خيوطها المتشابكة على جسدها العاري ، الهائج ، مداعبة ملمس جلدها برؤوس أخطبوطية ، لا مرئية ، ومتوغلة في تجاويف وثنايا مجهولة ، بأشكالها اللاهثة ، المحمومة ، فيما تحرّك شيرين جسدها ، كما لو تقوم باستمناء خارق دون أن تدري بأن لذتها العزيزة ما هي الاّ وليدة يدين متفطرتين إثر غسل الثياب والصحون وحّك الجدران :

- أين يكمن كل هذا العذاب في الرأس أم في الجسد؟

ثم اقتحمني سؤال آخر :

- الى أين يمضي أخي في تعذيب هذه الأنثى؟!

وتحركت العناكب من جديد على دروب جسدها ، باحثة في ثنايا أعمدة الضوء الممتزجة مع دقائق الغبار المتدفق ، عن اصطياد حشرات صغيرة تدخل في متاهتها ، لتخوض معاركها اللانهائية من جديد ، فيما تتهيأ عناكب أخرى للولادة في تلك الظلمة ، وقد اعتادت شيرين أن ترسل نظراتها الخاوية ، الجامدة ، من نافذة غرفتها الوحيدة ، لترى زوجها يغتسل ، مع انهمار ضوء الصباح ، في صحن المنزل ، فيما يمتد نظرها عبد البوابة نصف المفتوحة الى المقبرة الصخرية ، وما أن تشعر بالضيق من هذين المشهدين ، حتى تنصرف عن الرؤية ، وتنهمك بنفض خيوط العناكب المتراكمة على شعر رأسها ، بالمشط الخشبي الخشن ، وتزيل عنه تلك اللزوجة المبتكرة من ذاتها . هكذا إذن أصبحت غرفة العناكب ملجأها وحصنها ، بل قلعتها الأخيرة ، ومتعتها الوحيدة انحصرت الآن في ركوب ذلك القارب الليلي الذي يشق دروبه بين شباك العناكب ، وهي تفتش عن مخبأ الحشرات التي وقعت في الأسر ليلاً ، تحاول تخليصها من الأفخاخ المنصوبة لها ، وتقذفها من النافذة لتعيش حياة أخرى ، لا تمّل من التمتع بمراقبة تناسل العناكب

ومضاجعاتها العارية المكشوفة دون رياء أو نفاق مثل بقية البشر ، المنضبطين الأخلاقيين في النهار ، والفاحشين الرذيلين في الليل . . . والضجة التي يحدثها البشر في المضاجعة لم تكن في روح العناكب سوى صمت هائل ، يأتي ابتهاجها الخفي باللّذة من انعدام جسدها من اللسان ، هذه الزائدة اللحمية التي لا عظام فيها بقدر ما فيها من فحش ورياء ونفاق .

٣

إنتفخت مثانتي من تناول زجاجات البيرة تلك الليلة ، وكان عليّ أن أتردد على المرحاض مرات عديدة ، تجذبني نافذة غرفتها المضيئة وحدها من بين الغرف التي تطلّ على الصحن ، وكأنها تحولت الى ما يشبه الفنار أو نقطة حرس حدود تستوقفني ، رغم إرادتي ، لإبراز بطاقة هويتي ، فأرتمي بنظراتي في هذا القاع الملتهب ، لأرى تقلبات جسدها العاري ، المغطى بثوب عنكبوتي شفاف ، لا يتمزق ، فيما تسعى العناكب ، في همجيتها وطمأنينتها ، للخلود الى الصمت ، فيما اسعى أنا لأصطياد لذة بصرية يولّدها الجسد الأنثوي المهمل ، والمتوّحد مع أشياء الغرفة المبتذلة ، والساطعة تحت هالة بياض باهر أجهل مصدره ، وتذكرت خبثي الذي صعّد في لحظة شيطانية :

- إنها فرصتي الأخيرة في معرفة المرأة!

ثم نظرت الى وجهي في زجاج نافذتها ، فأبصرت ظلال وجه أمي يصرخ بي ، على شكل صدى متقطع ، مبحوح ، وهزيل :

- صه أيها الكلب ، يا خائن الأم والأخ ، الدنيا والآخرة!

ارتعش بدني لهذا الصوت الصارم ، الواثق من نبراته ، فكرة شيطانية تطلقها مخيلة ، سكير ، وعابث ، ومتخبط ، يعيش على ثمالة زجاجاته الفارغة ، الخيانة ثمالة بشرية نحاول التخلص منها عبثاً . فقلت في نفسي ، محاولاً اجتثاث هذه الثمالة النجسة العالقة :

- كيف يمكن أن يفكر هكذا إنسان مثلي أحبّ أمه وأخاه؟!

ثم انتفضت صارخاً في هذا الليل الخاوي :

- إنتبه ، أيها الشيطان ، وابتعد عني فهذا ليس يومك الذي تحتال فيه عليّ!

شيطان الملّذات المحرّمة أخفق في استدراجي الى حضيضه ، فيما يسعى رأسي المخمور الى استدراجه ، وأنا أتعذّب بين فكرة التسامي وفكرة الانحطاط ، حاولت إجهاض أية فكرة مشابهة ، قائلاً لنفسي :

- هناك مئات الرجال القادرين على تحقيق رغباتها!

وأضفت ساخراً :

- هل أنت الرجل الوحيد على الأرض؟!

كان عليّ أن أصفع قريني الذي يتحداني ، نصفي الدنيء الذي يحثني على اقتراف الذنوب والأخطاء دائماً .

- يا إلهي . . هل يصل العهر بالمرأة أن تضاجع العناكب؟

- هل اللذة عهر؟

- كلا!

- إذن لماذا تتحدث الكتب السماوية عن ملذّات الرجل الكبرى دون أن تذكر لذة واحدة للمرأة .

ثم تلاشى قريني في صفحة المرآة .

٤

حاولت الابتعاد عن تلك الأحاديث الساذجة التي كثيراً ما تجعلني أغوص في دوامة لا فكاك منها ، والأمور تزداد سوءاً ليس للعريسين بل لنا جميعاً . فقد اعتصم كل واحد منهما وتحصّن في قلعته كعدوين فقدا بنادقهما ، لا يحرّك جسديهما وعقليهما سوى هاجس واحد : معنى العجز . ونقلت شيرين كل حاجاتها الصغيرة الى غرفتها الجديدة ، وخصوصاً المرآة الجدارية ، لترى فيها تحولات العناكب ونزالاتها اليومية المستميتة :

– مجنونة . . مجنونة هذه المرأة .

حاولت أن أشرح لأمي بأن شيرين ليست مجنونة دون أن أفلح ، بل وأضافت بعصبية :

– وسوف تجنّن ابني . . وتقتله . .

كانت أمي كما يبدو تراقب شيرين ، وخيوط العناكب تتدلى من نهايات أظفارها الطويلة ، وتمدّ جسورها بين بعضها ، وتنقل مؤنها الى

زوايا الغرفة البعيدة كأنها تترقب وقوع حرب لم يفكر بوقوعها ألمع الخبراء .

- لماذا؟

- لأن خبراء الحرب لا يقرأون تجاعيد الأرض تحت أقدامهم .

- كيف؟

- لأنهم ينقلون الأخبار المزيفة عن هذه الحرب .

- أية حرب؟

- هذه التي نحن فيها . . وتلك القادمة .

- سنخسر ما دامت أصنام الآلهة لا تريد سماع الأخبار السيئة!

آمنت بآراء أخي وجميع مسوِّغاته في عدم الالتحاق بجبهات القتال . هذه هي حربه ، انتقلت بكل عتادها وضجيجها ودخانها المميت الى منزلنا . . ومن العجيب أن أمي حذرتنا مراراً من حرب العناكب ، وسيرتها الغادرة التي تتآمر في الخفاء وتكافح لتمدّ خيوطها اللزجة على أنوفنا وأفواهنا لتخنق أنفاسنا وتقضي علينا ، دون أن تتزعزع خيالاتها عن حمى فضّ البكارة ، وهي تجبرنا على النهوض فجراً ، كل يوم ، لنطرح على أنفسنا ببرود :

- هل فضّ هذا اللعين بكارتها حقاً؟!

لكن ذلك أصبح تساؤلاً بليداً أمام ما نعيشه من تحولات في غرفة العناكب ، بشر ، حيوانات ، حشرات ، جميعها قادرة على توليد اللّذة ، في الليل والنهار ، وهي تنهش فرائسها الميتة ، في ظل نقمة الخالق ، ثم تتلاشى مع أدنى ريح تهبّ ، وعاد الخبث الأناني ليطرح سؤاله :

- مَنْ يتجرأ على إنقاذ شيرين من قبضة العناكب غيري؟!

- مَنْ أنت؟!

- مغامر شجاع لا يفكر بالمحرمات .

- لكنك لست مغامراً ولا شجاعاً .

- المحرمات نزوة من نزوات الآلهة!
- كيف تتجرأ أن تجعل أخاك العاجز غريماً لك . . يا مجنون!
- مجنون؟!
- أجل .

انقلب رأسي المحموم ضدي ، وهذه النزوة علقت في ذهني مثل أخطبوط همجي ، أصبحت محاصراً لا محالة في هذا المنزل ، أخي ، أمي ، شيرين ، حتى العناكب أعلنت حربها ضدي ، وضربت في الليلة الماضية ، أنسجتها على زجاج نافذة شيرين ، لتبعد نظراتي عنها .

- ما الذي حصل . . هل اكتشف أخي غريمه الجديد؟

كان يفاجئني في أقاصي الليل أو عند الفجر ، مرتدياً معطفه العسكري ليتفقّد زوجته في غرفة العناكب ، ويراقب تحركاتي ، ذهابي وإيابي الى غرفة المراحيض ، لهيب الغيرة ، ونخر الشك ، وتصرفاتي العبثية . عزلة الجسد ، نزوة المحرمات ، وعينا شيرين ، كل ذلك فجّر ينابيع الخطيئة في أعماقي ، وقضى على ما تبقي من الزهو والكبرياء والمقدس . الأخ الصغير ما هو الاّ مخلوق ضعيف ، أجثم عليه بظلي الثقيل ، أب آخر في صورته الهزيلة ، أدركت بأن فضّ البكارة كان سلاحي الوحيد في معركة غير متكافئة مع أخي الصغير .

الشهر الرابع

محرقة آدمية لغرائز حيوانية

آب

١

أخذ الحرّ يزداد بضراوة حيث اختبأ عبد الرحمن في حجرته المظلمة ، طامراً رأسه في جسده مثل حلزون مذعور أمام مكيّف الهواء البارد . بدأ النهار يزداد طولاً ، جعله الضجر والاختباء عن أعين الرقباء والمخبرين يفكر في الالتحاق بجبهات القتال ، ثكنته الصحراوية ، التي تتردد منها أخبار موت أصدقائه الجنود بين حين وآخر ، لكن أمي صرخت بوجهه غاضبة :

- إذا التحقت بالجبهة سأحرق نفسي!

ثم رمت بزته الخاكية الرّثة في لهيب التنور لتقضي على آخر أثر عسكري في منزلنا ، ووضعت المذياع القديم في دولابها وأغلقته ورمت مفاتيحه في مكان مجهول من غرفتها .

- لا أريد أن أسمع بعد الآن أناشيد الحرب وبياناتها!

وتساءلت :

- ما الذي أصاب أمي!

كانت صهاريج الحرب تغلي فوق رؤوسنا منذ أعوام ولا تعطي أية هدنة ، ذات صباح ، أصبحنا مهدّدين بلائحة الهاربين ، عندما سطعت الشمس خارج منزلنا ، لتلقي ضوءاً كئيباً ، رغم تألق حمرتها ، على هذه المدينة الغارقة في الخطيئة تجاه ابنها الذي أحبها ودافع عنها ببسالة دون أن ترثه غريزة الأجداد . ستأتي أمي بعد قليل ، بخطى متراخية ، متعثرة ، لتزيح الستائر السميكة عن نافذة غرفته ، وهو يتحاشى رؤية هذه الشمس التي تذكّره بموعد الالتحاق بالخنادق الرملية ، والاستماع الى خطط الضباط الأغبياء في محاولة استعادة شبر من الأرض مقابل نهر من الدماء . في تلك اللحظة المنيرة ، قرّر الاّ يستجيب الى نداء الحرب ، ناقلاً أسلحته السّرية كلها الى جسده ، وأقدم على تمزيق ورقة إجازة العرس ، دون ندم ، محتمياً بنصيحة أمي . قلت في نفسي بمرارة حارقة :

- ماذا تنفع حروب الأرض كلها اذا كان أخي عاجزاً عن فضّ بكارة زوجته؟!

كان كل شيء في غير أوانه . توقيت الحرب ، العرس ، بناء المنزل وأشياء أخرى ، وهذه الحشرة التي تنهش رأسه ، وهذه الآفة التي تمزق الخرائط . وتذكّر أصدقاءه الجنود البعيدين ، وأحاديثهم الشبقية في الخنادق الرطبة ، المظلمة ، مضاجعاتهم الشاذة ، استمناءاتهم الطويلة ، نكاتهم اللاذعة وسخريتهم من أحلامه وزواجه . وقلت في نفسي كمن ينعى عزيزاً :

- كيف يتسنى له أن يحسم الأمور العامة وهو عاجز عن حسم أموره الخاصة؟!

لم تكن زوجات الجنود المقاتلين في الجبهات ، والغائبين عن المدن ، سوى أهداف هشة لمصائد الرجال الطائشين الذين أفلتوا من أتون الحرب بأموالهم وعطاياهم . هكذا تحوّل منزلنا الى مستوطنة ، معزولة

في هذه المدينة ، تتعيَّش على بقايا الخوف ، ويتربص بها الأعداء من كل مكان ، كأنهم ضربوا حولها دائرة نارية ، بحيث كنا نرتجف كلما سمعنا طرقاً غريباً ، حاداً ، على الباب ، تلوح لنا فرق الإعدام ، الجوّالة ، التي لا تمل من نصّب الأفخاخ للهاربين من الحرب ، وتقيم لهم حفلات الإعدام العلنية في الأحياء إمعاناً في إعطاء الدرس . في لحظة طارئة مثل هذه ، أحسسنا بأننا لا نعدو أن نكون نسيجاً أجوف ، خاوياً ، رؤوساً منتفخة بالصداع النصفي ، يشهد نصفها الحيّ على نصفها الذي يموت بالتدريج ، دون أن نتمكن من الإفلات من السؤال اللانهائي :

– من أين يموت الرجل؟!

٢

في لحظة تخلت عن بدايتها ونهايتها ، تسّلل العجز الى بدنه ، مثل خدر أو شلل يرفض الذوبان في هيكل جسده أو يتبخّر مع الهواء الزائد ، فيما تناهى الى قاع أذنه نباح كلاب ، بعثر صمت تلك الليلة الطويلة ، المملّة ، وترسب مثل رصاص متجّمد في أنفاق أذنه ، رافضاً الخروج ، فجعله يستيقظ من نومه المضطرب ، ويخرج الى صحن المنزل ، يلقي نظرة على غرفة العناكب ، ثم يتوجه نحو غرفتي ، بين أسراب البعوض الصيفي الذي جذبه قنديل خفي معلق في احدى زوايا الصحن ، بالقرب من المراحيض :

- نباح كلاب معذبة تلقى في حفرة النيران .
- محرقة كلاب إذن!
- هكذا أطلقت عليها البلدية .
- لماذا؟
- لتتخلص من جربها وعوائها . . وطعامها أيام الحصار .

- ولماذا أيضا تُعذّب هكذا!
- لمعاقبتها!
- كيف؟
- لأنها التهمت المزيد من جثث الجنود الملقاة على رمال الصحراء!

ومن العجيب أننا لم ننطق بكلمات متكاملة ، منتظمة ، وصحيحة ، اذ كانت الاشارات والايماءات كافية لتبرير وجودنا البشري ، وربما الحيواني ، ونحن ننصت الى عواء الكلاب ، كلما تطايرت نيران المحرقة البعيدة عن منزلنا ، كان عواؤها يدخل الى اذننا بدرجات متفاوتة ، يتغير إيقاعها أثناء احتراقها الجزئي : أطرافها ، آذانها ، رؤوسها ، أذنابها . ولكل احتراق عواء خاص ، يتناهى الى أسماعنا ، كصوت مرئي لغرائز حيوانية وقعت في محرقة آدمية :

- أليست الحرب ضجيجاً وعواء كلاب محترقة؟!

هزّ أخي رأسه في محاولة للاجابة ، ثم ثبّت عظام صدره عن الحركة ، مانعاً الهواء من الدخول الى رئتيه ، كأنه يتحسس باستنشاق دخان المحرقة الذي بدأ باقتحام منزلنا في تلك الظلمة الحالكة اذ تحوّل النوم واليقظة الى حيوانين مخيفين ، الأول يذكّره بانسلاخه عن الهروب الجماعي الى التهلكة والثاني يجعله يتحمّس لقتل وحش الحرب ، الذي تنكّر أمامه بثياب وديعة وشعارات نظيفة ، جذره مكر إنساني وشيطاني .

- مَنْ يدري متى يولد فينا هذا الوحش؟!
- فات الأوان لقد ولد وعاش .
- في أية لحظة من الزمن؟
- في لحظة لا تعرف بدايتها ولا نهايتها!
- وماذا نفعل الآن؟

لقد أخفق أخي في إنقاذ جلده من هذا المصير المحتوم ، عجزه ، الذي

كثيراً ما دفعه الى التنبؤ بخسارة الحرب أمام عدو بربري . وحيوان الحرب يكمن فينا ، يترقب لحظة الخطأ ، لينمو وينضج ويكبر ويتحول الى وحش .

تحرّك القيء الثقيل في أحشائه مثلما تتحرك سمكة ميتة في بحيرة راكدة ، رافضاً الخروج من فتحة الفم :

- هل يمكن أن نتصور رجلاً يبتلع قيأه؟
- أجل الخنزير وحده قادر على ذلك؟
- من بين جميع الكائنات؟
- أجل .
- وهل ثمة مَنْ ينقذ جلده؟!
- في هذه الحرب؟
- أجل .
- الحرب قيء صباحي مباغت .

ثم غادر غرفتي ليذهب الى المراحيض ليتبول أو ليلقي قيء الحرب في الحفرة أو ربما ليفرغ رئتيه من دخان الكلاب المحترقة!

٣

هزّت قشعريرة العجز كيانه وملأت فمه بقيء جامد ، ينضح برائحة كريهة ، زنخة ، تزكم الأنوف وتبعث على الغثيان في الصباح الباكر .

– هل يمكن أن يعتقد كالآخرين بأن الرجل لا يمتلك سوى شيء واحد : القضيب؟!

لم يتمكن من تناول الفطور معنا في الصباح ، إنه نوع من الإحساس ، لا علاقة له بالقيء ورائحته بقدر ما له علاقة بالعجز . وازدادت حالته سوءاً ، في تلك الليلة خرج الى صحن المنزل ، كشبح أو مسخ عجيب ، بقضيب ، يشيخ ويذبل ويتلاشى بين فخذيه يوما بعد آخر ، أخطبوط ينتقل رأسه من مكان الى آخر في حركة مخاطية تشبه حركة الحيامن اللامرئية ، التي ماتت في أحشائه قبل أن يتعرف على شكلها أو لونها في ليلة العرس . رغبة محمومة ، غامضة ، خرافية ، تنقضّ عليه ، مختلطة بذكريات نساء الحمام العاريات ، يوم كانت أمي تصطحبه مدّعية خرسه وعدم إفشائه لأسرار أجسادهن . ولا يمتلك

الآن سوى النظر الى شيرين العارية ، العزلاء ، في غرفة العناكب ، وما يفرّق بيني وبينه ، نظراته الشرعية ونظراتي المحرّمة ، وما بينهما تكمن أكبر الرغبات وأقواها . ولكن شيرين لم تعد كما هي ، وهاهي ذي أخرجت كل ما تكدّس من ركام الظلم في داخلها لتتحدث عن أكبر محرماتنا دون الأنصياع لتقاليد أمي أو لشريعة الرجل ، وصرخت في وجهنا فجأة :

- إنه . . .

وطأطأت رأسها الى الأرض خجلة دون أن تكمل عبارتها ، وفكرت بعشرات الرجال الذين يتمنون الزواج منها رغم تضاؤلهم وقت الحرب . ثم لوت لسانها أثناء تناول الفطور في محاولة لوضع العراقيل أمام كلماتها ، أنقذها خجل قديم ، وعزاؤها الوحيد القدر الذي آمنت به ، رجل يطوي في داخله بعض الأسرار مثل زوجها ، بعد أن خابت آمالها بأحلام الفارس البعيد الذي يأخذها ويطير على ظهر حصانه ، الى مدينة أخرى .

وظهر الحزن على ملامح وجه أمي وتذكّرت ذلك اليوم الذي أمسكت به يد ابنها ، كما تمسك بيّد صبي صغير ، لتخطب له شيرين ، بسطت أمام عائلتها صفاته المهّذبة كلها : لا يدخن . لا يشرب الخمر . لا يخرج من البيت ، ثم أضافت بخجل :

- إنه شاعر ومسرحي!

فضحك الجميع ولكنها تداركت الموقف قائلة :

- ولكن لديه مهنة بعد أن تنتهي الحرب .

رغم أن أمي كانت تؤمن بأنه شاعر ومسرحي الاّ انها غضبت عندما عاد من المدرسة الى البيت ووجهه مغطىً بالمكياج لان فرقة المدرسة اختارته ليمثل دور امرأة . صرخت في وجهه :

- إنزع هذا الثوب واغسل وجهك من هذه الاصباغ الحقيرة .

لم تكن أمي تريد ان تراه على هيئة امرأة او بقناع امرأة ولا أنسى هذيانه في تلك الليلة :

- أية امرأة ألصقتها بي شياطين فرقة المسرح المدرسي .

منذ صغره كان أخي الصغير يتسلح ببراعة التمثيل والفن المراوغ ليقول كلمته ويدهش بها الآخرين ، كراريس الشعر التي كانت تنقلنا الى عوالم خارقة نشعر معها باجنحة تنبت لنا لنطير خارج فضاء المنزل .

في يوم الخطوبة ، لمحت شيرين وجهه المدور الصغير ، المليء ببقع بثور حمراء ، والخالي من زغب اللحية والشاربين ، وقالت في نفسها :

- هل اللحية والشاربان علامة الرجولة؟!

لكنها لم تعبأ بذلك وانبهرت سريعا بابتسامته الخجولة رغم حلمها بالزواج من رجل أكبر منه قامة وضخامة . . وحبذا لو كان له شاربان غليظان ، لكن عندما تذكّرت قصيدة الحب التي كتبها لها ، حاولت أن تحبه على طريقة الإيمان بالمكتوب . وهكذا سالت دماء العائلتين في مجرى واحد ، واتفقتا بأنهما مخلوقان لبعضهما بعضاً ، لا زيادة ولا نقصان . أما مزاج أمي فقد تعكّر في ذلك العصر ، الذي ما زال يتقطر منه الحرّ ، عندما دخلت عليها نخبة من صديقاتها واستغرقن في الأحاديث ، همست إحداهن في أذنها :

- ألم يكن الأفضل أن تختاري له أرملة شهيد؟!

- أرملة شهيد!

- ولم لا . . إنهن يتكاثرن ويتجولن في الطرقات والأسواق بحثا عن زوج أو مُعين!

ثم أطلقت أخرى لسانها :

- لو يعمل عبد الرحمن عشرين عاماً من الفجر حتى الليل لا يستطيع أن يشتري قطعة أرض ولا أن يدّخر عشرة آلاف دينار!

انفجرت أمي صارخة :

- ما حكاية قطعة الأرض والعشرة آلاف دينار؟!

أجابتها أخرى :

- الاّ تعرفين القوانين يا أم عبد الرحمن ، انها هبَة الدولة لمن يتزوج أرملة حرب . .

رفعت أمي رأسها الى صورة أبي وبندقيته المعلقة على الجدار ، تنهدت ، ولعنت الشيطان ، ونفضت وشاحها ، ثم رمت قدح الشاي في الصحن المليء بالماء ، وصرخت :

- هل نشرب دماء الشهداء في آخر عمرنا؟!

ثم كرّرت صراخها :

- اللعنة على قطعة الأرض والأموال المزيّفة!

وهمّت النسوة بمغادرة المنزل ، وهنّ يحاولن تهدئة أمي التي بدأت تتمتم بكلمات متقطعة تلاحق بها النسوة :

- لن تنسى الأرملة زوجها مهما تزوجت . . .

٤

لم تكن شيرين في قلعتها تسمع أي أثر لتلك الأحاديث التي كثيراً ما كانت تتلاشى في الضجيج ولا يبقى منها سوى العجز المطبق على كل شيء . في هذا الشهر أخذت شيرين تتصرف بشكل عجيب ، لتؤكد إيمان أمي بأن زواجهما تقارب حيواني ، متوحّد ، بين عائلتين متشابهتين ، رغم خيوط الكراهية المخفية بينهما . فقد خرجت الى صحن المنزل ، واضعة المساحيق والأصباغ والطلاء على وجهها ، وزيّنت نفسها بالأقراط الذهبية والحلي البراقة ، وأخذت تهزّ بطنها المنتفخ ، وتجول على الغرف ، تلقي نظرة على كل واحدة منها وتهرب ، فيما تدلت أنسجة العنكبوت من شعر رأسها وثوبها الفضفاض . أطبق علينا الصمت بهذا المشهد ، ولم تتجرأ أمي ولا عبد الرحمن ولا أنا أن نسألها عن هذا السلوك . تمتمت ببعض الكلمات تعبيراً عن يأس متغلغل ، مبطّن ، وتعثرت كلماتها باحثة عن المعاني الضائعة في رأسها ، مقاطع كلمات ، ألغاز ، لكنها كانت تبحث عن هذه المعاني

هناك في قلعتها ، وليس هنا بين جدران المنزل . كان ذلك الرقص ، أنوثتها ، وفي لحظات اليأس ، تذهب لارتداء أثواب فضفاضة رثّة ، مهملة ، تخرجها من خزانة الثياب القديمة ، لتنفي تحت هذا المظهر الكئيب أنوثتها .

الشهر الخامس

دم فاسد في شجرة العائلة

أيلول

١

تسلل خيط من الخريف الى صحن منزلنا خلسة على شكل إيماءة ورقة صفراء ، متطايرة قريبة ، فولدت هذيان الأسلاف في الغرف ، وها أنذا بدأت أخشى التورط في الحديث مع أخي ، لأن كلماتنا وأحاديثنا تحولت الى ألغاز مختبئة في الصدور . كان عليّ أن أختار كلماتي بعناية تامة مثلما يختار الجندي وضع قدميه في أرض مزروعة بالألغام . أدركت آنذاك كم من الحشو الزائد كان يطغي على أحاديثنا اليومية ، وعلى رؤوسنا ، كنا في الوقت نفسه ، بحاجة الى ذلك الصفاء ، الذي يطهّرنا من جميع أوهامنا تطهيراً كاملاً ، ويهدم الهوّة ما بين عقولنا وقلوبنا :

– مَنْ يقدر أن يهدم تلك الهوة؟!

أفقت من نومي المضطرب على أنقاض هذا الهاجس المروّع ، وكأنني أسارع الى حمل المعاول على ظهري وأهرب الى الوديان لتنفيذ هذه المهمة : هدم الهوة ما بين قلب شيرين وعقل عبد الرحمن ، لكني

لم أكن أمتلك ، في نجدتهما وإغاثتهما ، سوى الكلمات ، وتساءلت :
- أية معاول قادرة على هدم كلمات ورثناها منذ قرون؟!
هذه الكلمات التي التصقت بباطن أفواهنا مثل مرض مزمن لا يزدهر الاّ في البقع الملوثة ، الجلد الممّزق الذي لا يلتحم :
- ما زلت أدخر الكلمات!
- مجنون أنت!
- لماذا؟
- لماذا لا تبحث عن رغيف خبز؟!
- اذا توقفت عن ابتكار الكلمات لا أعثر على ثمن رغيف الخبز!
- هل أنت متأكد من نفسك؟
- أجل . .
- ما هو الدليل؟
- لست عاجزاً حتى الآن ولا أعرف ما الذي سيحدث فيما بعد!
سرعان ما أهملت هذا الهذيان وفكرت بأخي الذي راح يطوي النهار والليل ، بالنوم ، وكأن المرء كلما طالت صلته بالحياة ، نفر من ممارسة أي فعل ، متحسساً بأنه ينزل الى مجاهل اللحد . رغم إلحاحي بمواصلة الحديث مع أخي ، ومعالجته بالكلمات ، امتد فضاء هلامي كثيف بيننا ، حاجباً رؤية أنوفنا ، فيما أرى عجز أخي يتسلل الى أعماقنا ، مثل خَدَر طويل . لكن عبد الرحمن كان يقتنص الفرصة بين حين وآخر ليمضي بقايا ليلة مع زوجته في غرفة العناكب . وقد غُلفت مشاجراتهما الليلية ، المخنوقة الأنفاس ، بصبر مصطنع ، لأن جسديهما فشلا في تلمس حدودهما ، فطفحت عليهما بثور حمراء ، محتقنة بدم فاسد ، باحثة عن منفذ للخروج . كان أحدهما يريد نهش جسد الآخر ، تبيّن ذلك في خدوش الأظفار وآثار عضّ الأسنان على اذرعهما وعنقيهما ، كأن أحدهما كان يسعى لإخراج الآخر من جلده

المنضمر ، دون جدوى ، لم يدّخر عبد الرحمن من عزوبته ، سوى شهوة ضالة ، لم يجرؤ على تذوقها مثل ثمرة سامة أو تلمسها مثل تعويذة ساحرة ، فيما كنت أمضي نحو تنفيذ رغباتي الخفيّة في عمق الظلام أو خلف الستائر ، ملذات ، ومصائر ، تصنعها أيدينا من أوهام الآخرين .

٢

تساءلت في سرّي مراراً :

- كيف يتسنى لي أن أسبر أغوار هذا العجز بأسلحتي الضعيفة؟!

أجابني عبد الرحمن :

- لا أحد يستطيع أن يسبر أغوار فحولتنا الاّ الرّب!

- الرّب!

- أجل .

- لماذا؟

- لأنه لم يعطنا سوى الألغاز!

ثم غادر غرفتي غاضباً ، فاندفعت أمي بعينين دامعتين ، وهي تقول :

- كنت أعرف ذلك من يوم ختانه!

وتمتمت :

- الختان . . طهارة ورجولة!

ياإلهي ، كم كانت تتمنى أمي أن تأخذ المنديل الأبيض الملطخ بدم العذرية ، ذلك الخمر الإلهي الجاري أمامها كسيل جارف من حمى جسد شيرين ، لتنشره ، متحدية ، في وجوه الرجال والنساء ، وترفع رأسه كفارس منتصر ، وتطلق زغاريدها في حضرته ، لتعلن بأن الدم رجولة . لكن القدر شاء أن يقلّب كل شيء ، في تلك الليلة اللعينة ، يبست حنجرتها ، وانتفخت عروقها بحيث كانت تعجز عن ردّ تحيات المدعوين ، وسط صخب النساء الشرهات اللاتي يطالبنها ، بنظراتهن الخبيثة ، اشهار دليل الرجولة ، الدم الذي جفّ في أعماق شيرين . . بقعة حمراء لا ينساها الرجل حتى يوم مماته .

- أي عزاء سيحمله غياب الدم لأخي؟

كنت أخشى من هذا الدّم طوال حياتي .

- مَنْ يجذبك الى الخطيئة يا إبني؟!

قلت بصوت خافت :

- ذلك الخمر الإلهي الأحمر!

واختفى الصوت ، فتساءلت :

- أي مصير ينتظرنا لو ماتت رجولتنا؟!

كنت أسترق النظرات من وراء وشاحها الأبيض ، الذي لفّ شعر رأسها ونصف وجهها ، وهكذا وجدت نفسي منجرفاً في تيار لا يمكن مقاومته :

- اللعنة!

- اللعنة!

- بكارة المرأة أكبر إغراء عرفته في حياتي .

٣

وانتفضت سلالتنا بأكملها لهذا العجز ، متخوّفة من الهذيان الجنوني ، الذي فاض علينا من ليلة العرس ، وكأن فضّ البكارة تحول الى معركة تضاف الى معارك البلد الطاحنة ، وانصاع أفرادها لنداء أمي ، وقدموا الى منزلنا ، من مدنهم وقراهم النائية ، وهجموا علينا كالجراد ، متأبطين عقاقيرهم ووثائقهم ونصائحهم ، واكتظّت بهم غرف المنزل ، وإضطر قسم منهم أن يسكن عند الجيران أو في الفندق الوحيد ، جاؤوا ليبعثوا النار في رماد العرس ، رغم انتفاخ بطن شيرين ، وهو لم يفضّ بعد بكارة زوجته . كانت خطوة أمي هذه باستدعاء أفراد قبيلتنا خطوة يائسة أخرى تضاف الى خطواتها السابقة ، وهي ليست الخطوة الأخيرة . فقد اصطحب أفراد قبيلتنا أوراق أجيال بأكملها : دفاتر نفوس ، بطاقات تموين ، أوراق الفحص الطبي ، شهادات الموتى ، وشهادات الولادة ، وجميع الأوراق المختومة ، من قبل الحكومات العثمانية والانكليزية والملكية والجمهورية ، التي تعاقبت على حكم

هذا البلد . وهكذا سلّموا أمي جميع تلك الأوراق وحتى وصايا الموتى وذكرياتهم ، فانخرطت في هذا الاحتفال العائلي ، الأسطوري ، على الرغم مني ، وطلبت أمي أن أرسم بالجصّ الأبيض ، شجرة العائلة على أرضية صحن المنزل ، وفرشت فروعها وأغصانها ، مثبتاً عليها أسماء الأسلاف الصالحين والطالحين ، النبلاء والدنيئين ، وبدأنا نبحث عن سرّ العجز الوراثي الذي أنزله أحدهم من ظهره في عروق أخي . وتألقت على جذع الشجرة وفروعها وأغصانها المرسومة على الأرض ، أعمال قبيلتنا ، الطيبة والخسيسة ، حروبها ومؤامراتها ، قلقها وطمأنينتها ، فضائلها ورذائلها ، مثل لوحات شرف . لم يكن يصدّق أحد بأننا كنّا ، بين الزهو والذل ، العناد والاستسلام ، نتتبع مجرى الدم على الأرض ، محاولين استئصال العرق الخبيث الذي تسبّب في عجز أخي ، واقتحم قبيلتنا بأكملها ، وجسد عبد الرحمن ، كمرض مجهول خفي ، دفين ومختبئ ، يحوّل الزكام الى سرطان والخدر الى شلل ، دون أن يفصح عن وجوده لقرون خلت ، ربما ليعطينا جميعاً درساً في التعذيب ، والإذلال ، واللعنة . وتنكر أفراد قبيلتنا على هيئة عائلات حضارية ، بحركاتها وأزيائها ، وبدأوا يلهثون ويحومون حول شجرة العائلة ، التي انفرشت على الأرض ، بهدف تتبع سيرة الأسلاف البعيدين ، والبحث بين جذعها وفروعها وأغصانها ، عن بذرة العجز . وبعد أن أصاب أفراد العائلة الإنهاك ، افترشوا الأرض ، واكتشفت إحدى العجائز أن أحد الأسلاف عيناه جاحظتان . أنفه طويل ومدبّب . وجنتاه مقعرتان . وجهه مدوّر وأملس . رقبته طويلة . فمه متهدل . يشبه أخي في كل شيء . ومن عجيب المصادفات أن هذا الشبيه كان يحمل اسم عبد الرحمن ، فاستنفر الجميع ، وتجمعوا ليلقوا نظرة على هذا الأسم المعلق على إحدى فروع الشجرة ، وصرخت هذه العجوز :

- لكن ذلك السلف عندما اكتشف عجزه ألقى بنفسه في البئر ليلة عرسه!

فنهضت أمي كالمجنونة وصرخت في وجهها :

- ابني لن ينتحر ايها الشمطاء .

وطردتها من المنزل ورمت نعلها القديم وراءها إمعاناً في ازدرائها وإهانتها .

وتمتمت :

- البئر مغارتك أيتها الشمطاء!

وبدأت النسوة يلملمن أطراف عباءاتهن وأثوابهن عن الشجرة المضطجعة على الأرض ، كأنهن يهربن من مرض معد ، فيما انطلق الرجال بضحكات هستيرية ، محولّين الخبر المأسوي الىً نكتة عابرة . ثم عاد الجميع يدبكون ويرقصون ، كأقوام بدائية تنفضّ عن أجسادها غبار القرون ، وتملأ بطونها بأكوام الرز وقطع اللحم ، كأنهم يحتفلون تواً بليلة عرسه ، فيما انزوى أخي في غرفته ، غارقاً في عجزه ، تتناهى الى أسماعه ، أصوات الهذيان الجماعي ، وأحاديث النساء وسخريتهن عن العجز الذي لا علاج له الاّ بمضاجعة عشاقهن المتكاثرين وقت الحرب . انتفضت أمي من هذه الأحاديث ، وهامت على وجهها في صحن المنزل ، قاطعة الفناء المهجور ، جيئة وذهاباً ، تحمل مبخرتها الفضيّة وتلعن الأسلاف والأجداد ، وتضرب بنعلها العرق الخبيث في شجرة العائلة . وتداول أفراد القبيلة ، بعد أن أمضوا ثلاثة أيام في منزلنا ، أمر تحسين نسلهم المهّدد بالعجز ، مما جعلني أفكر :

- كيف سيتحسّن هذا النسل وهم يضاجعون بعضهم بعضاً؟!

قبل أن يغادروا ، أرسلوا أنظارهم الى السماء ، وكفّوا عن النظر في صورة العنكبوت الضخم المعلقة على الجدران ، ينتظرون هبوط العلاج السحري لعجز أخي ، كأنهم ينتظرون البطل المنقّذ ، و هذه السنوات

الطويلة كلها بل والقرون بسطت ظلالها الصفراء ، الذليلة ، على حياتنا ، وامتصت من أرحام نسائنا طاقة إنجاب هذا البطل ، المنقذ لعجز أخي المتردي يوماً بعد آخر ، لأن تاريخنا الحافل ، كما يبدو ، لم ينجب سوى الأبطال ، المخربين ، ومشعلي الحروب ، والقتلة المحترفين ، ومصاصي الدماء ومزيفي النقود ، حتى هذه اللحظة ، لحظة عجز أخي عن افتضاض بكارة زوجته . ورغم رحيلها ، ما زالت آثار تلك القوافل الحمقاء وبصماتها ، موجودة في المنزل ، تبدو مثل آثار أقدام حيوانات ، تخلّصت من روثها بعد أن تخبّطت به إذ كانت ، هذه السلالة المقيتة ، القبيلة الثرثارة ، والعائلة المحافظة ، التي كثيراً ما تحدثت عن نفسها بكبرياء وافتخار وعن عرقها كأفضل أعراق هذا البلد القديم ، وبرّرت حقها في حماية الدنيا والآخرة ، غارقة في انحطاطها المزري ، وأن أبرز رجالها المتأنقين بالبزات الحريرية والقبعات الأفرنجية والعباءات والعقال ، كانوا من المهرّبين والقتلة والجلادين والمرتزقة والسماسرة والسياسيين الانتهازيين ، يسعون الى إخفاء هذا العجز ، العرق الخبيث ، الذي يهدّد جاههم وسلطانهم ورجولتهم .

٤

انزوى عبد الرحمن في غرفته ، وبدت عليه آثار التعب ، ازرقت شفتاه ، وجّف عليهما اللعاب ، ولم تعد عظامه الرخّوة تقوى على حمل جسده الناحل ، كان يلمّ غضبه وسخطه الدفينين ، ويضعهما في ملجأ مؤقت ، يؤخر لحظات العجز المتسارع نحو الاكتمال ، وملامسة حتفه الأخير ، عبء بين فخذيه ، كائن قرر الانفصال عنه في لحظة لعينة . وحلم بأنه مسجى وسط صحن المنزل ، في العراء ، تحيط به نسوة ، يمددن رؤوسهن ، على جسده الخامد ، فتنزل شعورهن الطويلة الملساء على وجهه ، وتطلق رائحة معطّرة بالحناء والعرق ، تكاد تخنق أنفاسه ، وهو يحدق بخواتمهن وأسوارهن وقلائدهن وحليهن ، بأحجارها المتألقة ونقوشها الدقيقة ، غابة نساء شرهات ، تملأ أذنه بضجيج الموتى وعويل الثكالى . ولم يبصر من كل هذا الظلام الكثيف سوى بريق عيني أمي ، وضفائر شعرها ، تلّتف حول جسده ، مثل لفائف حبال قوية ، وتنتشله من هذا الجمع الأنثوي المتكاثر ، حتى أفاق فجأة من

هذا الكابوس ، خائر القوى ، هزيل الجسد ، وشعر بعطش جاف ، ثم تهيأ للخروج من غرفته ، حاملاً بيده الفانوس النفطي ، ملقّياً ظلالاً واهية على الجدران ، يتعثر بأطراف دشداشته الفضفاضة ، وهو يسحب جسده كجرذ أطبقت على أقدامه مصيدة ، متوجها نحو المراحيض ، وما لبث أن اهتز جسده المتضائل ، المتّوتر ، بفعل انطلاق عواء مباغت لكلاب نائية ، تذكّر ثكنته العسكرية ، وهو يلقي نظرة بطيئة على غرفة العناكب ، فسالت منه قطرات عرق باردة ، كأنما ينفضّ من جسده دهون فائضة لا يحتاجها ، ولم يشعر بانطفاء الفانوس النفطي المعلق بأطراف أصابعه من اختفاء الضوء المفاجيء ، بل من زوال حرارته ، فلم تصدر عنه أية ردّة فعل فيما عدا تخبطه في البحث عن غرفته ، لم يعبأ بالأنفاس اللاهثة المنطلقة من الغرف الأخرى ، إذ فوجيء بأنه دخل غرفة أمي عن طريق الخطأ ، ورآها تقف كالعمود الجامد ، تصلي وتبتهل له ، وما إن رفعت رأسها عن السجادة الصغيرة حتى ارتمى عليها ، يقبل رأسها ويدها ، ثم انفجرا ببكاء عارم سوية ، وصلني كالنحيب في تلك الليلة الأكثر ظلاماً .

في الصباح ، دخلت علينا قابلة متقاعدة ، تنتقل بين أسرار النساء والولادات العجيبة ، واصفة له دواءً كالقطران من شراب الجن والدبس ، مزجته وذوبت فيه مّخ ضبع ، وأقسمت لأمي بأنه سيد الأدوية جميعاً للرجل العاجز . وما إن تناول هذا الشراب حتى صعدت التعاويذ الى رأسه ، وخلد الى نوم عميق ، كأن قوى غيبية ضربته على رأسه فلم يفق من ذلك الشراب المخّدر الاّ بعد يومين ، فأضطرت أمي لوضع كل حليّها وجواهرها الذهبية ، ثروة عمرها ، بيد الصائغ الصابئي ، محتكر بيع وشراء الذهب في مدينتنا ، لنأخذه الى الطبيب في بغداد ليعالجه من التسّمم بهذا المشروب اللعين . ولاح شفاء عبد الرحمن لأمي مع بريق الذهب ، ذلك العجز الذي يذوب في مناجم

الذهب ، ويتحول الى قوة هائلة ، تغيّر وجهه الى قطعة بلّورية ، صافية تختفي منها غضون الألم . أفاق عبد الرحمن من غيبوبته ، مرسلاً نظراته الى أبراج القلعة المضيئة ، متأملاً أسرار الكائنات التي تعيش في سراديب البيوت ، وأدرك بأن حياته بدأت تضيق في حلقات الأكل والشراب والنوم ، فيما تحولت رجولته الى فتات يتناثر على الكلمات القاموسية التي راحت تطفو على ألسنتنا ، فيما تحتضر أجمل الكلمات في ظلمة العجز ، الذي بدأ ينزل على كلماتنا ويغطيها بركام كثيف من الغبار ، وتساءلتُ :

- هل موت الكلمات يمهّد لموتنا؟

الشهر السادس

بطن حبلى بريالم الخريف

تشرين الأول

١

عكست رياح الخريف اصفراراً مخيفاً كأنها استعارته من أغصان الأشجار المميتة أو من وجه مسلول ، وانعكس بتموجاته على شفتي شيرين وعرّى بوضوح الشقوق الخالية من نبض الدم القاني ، معركة بين لونين عدّوين انتهت لصالح ذلك الاصفرار المحبط . ومنذ ان اكتشفت لون وجهها الجديد ، انزوت ، وأخذت تتجاهل وجودنا الهش ، كأنه طارئ ومؤقت في هذا المنزل ، وبمعنى من المعاني ، أصبحت كائناً مكتفياً بذاته ، تستلهم طاقتها من بئر لا ينضب من المهاوس الليلية ، كائنان استوطنا في أعماقها ، أحدهما ليلي ، قاتم ومتشائم وآخر نهاري ، متوهج ، ومتفائل ، الأول كان يسحبها نحو قعر العجز المليء بالرمال المتحركة المميتة والثاني ينطلق نحو لجّة الحياة ، المليئة بالنبض المتسارع ، وفي صراعهما اللانهائي تولد المرأة الحامل ، المتوترة الأعصاب والحركة ، والمحنيّة الظهر كشجرة مثقّلة بثمرة ضخمة غريبة ، مجهولة الأصل والمنبت ، مزيج من حلاوة ومرارة ، لذة فالتة ، ونطفة هائجة ،

تمكنت من مقاومة فصلي البرد والحرّ ، واكتفت بخلق فصل جديد واحد ، اعتدنا ان نعيشه ، بروائح مباغتة ، بعد أن استسلمت الفصول الأربعة الى قدرها ، واسدلت ستاراً على بصيرتنا وحواسنا المجهولة الأخرى التي لا نعرف جوهرها حتى في أوج البهجة . وربما لهذا السبب انتفخت كطاووس ، معلنة كينونتها المتطرفة ، وهي تقطع فناء الصحن جيئة وذهاباً ، رافعة رأسها الى قبّة السماء .

تساءلت ما الذي يبعث كل هذا الغرور؟!

ثم دققّت النظر في بطنها المنتفخ ، الظاهر ، والمندلق من ثوبها الفضفاض ، الذي نفح بي ريبة غامضة كأن معجّزة نزلت على رؤوسنا كشظية مباغتة ، تائهة ، وخسرنا الرهان العنيد مع القدر وازدادت اندفاعاتنا لمعرفة المزيد من هذا السّر ، لكنه لم يكن سّراً بالنسبة إليه على الأقل ، وسط بحث العناكب عن طرائدها ، في أحشاء جسد عبد الرحمن ، الذي يتغذى على بقاياه . هكذا كان كل شيء شفافاً يمكن رؤيته عبر ألواح الزجاج ، الدّوارة حول نفسها في الكشف عن وجوهنا ، ووجه أمي بالذات ، هذا الكائن المدهش ، صحوة عقل ، وريبة مبطّنة ، ومزيج من يقظة وحّذر واحتراس من الابن الأكبر ، ذلك الوريث السيء للأب ، التائه في طريقه ، والعاجز في أن يصبح أباً حقيقياً أو ابناً مطيعاً ، وربما خلقت هذه الأزدواجية المستحيلة ، مني رجلاً ضعيفاً أمام شيرين واغرائها الأنثوي ، هذه هي أمي ، عصارة أزمنة تعاقبت وأخرى لم تلد بعد ، لا تستسلم بسهولة الى الحقائق الفظة ، لكن ما أدهشني هو صرختها المدوّية :

- شيرين حبلى برياح الخريف!

ومطّت كلمتها الأخيرة بصوت خافت :

- رياح الخريف الصفراء!

هكذا عاد الاصفرار هذه المرّة ليكسو وجوهنا جميعاً ، ويقضي على

لون آخر قطرة دم تخثرت في شراييننا ، ونزل الخريف ضيفاً ثقيلاً ، في غير أوانه ، غازيا صحن المنزل برياحه اللاهثة العجوزة ، ورجرج بتكاسل الثياب المعّلقة على حبل الغسيل ، وظهر وجه شيرين ، بوجهها المصفّر ، الذي لم يكن بعيداً عن نكهة هذا الخريف ، مما زاد في سكونها وخلودها وصمتها . وعندما أفاقت من رقادها الطويل ، جلست ما تبقى من الوقت ، على عتبة غرفتها ، محاطة بأوراق خريفية ، تطايرت من البراري المجاورة ، ووجدت مثواها الأخير هنا ، جذبتها بطاقتها الخفيّة ، فتكومت أكداساً تشبه شكل قبر ترابي ، تتلمسه بأطراف أصابعها ، وتنقل هذا التمسيد الى بطنها ، كأن تلك الأوراق الخريفية كانت رسولاً وشاهد عيان في الاعلان عن مصيرها ، وربما عن مصائرنا جميعاً ، وحملت عزاءً لا مثيل له ، مرتدية أثواب الحداد ، لتبث في رؤوسنا المعتقدات البائدة ، التي تكوّنت في قاع الكيمياء المظلم ، وتحوك المؤامرات وتدّبر المكائد ، وتخلق مآثر الحب والحقد ، لكن ما ضرب معتقداتنا في الصميم وحولها الى خرائب قائمة ، هو الجنين الذي لا يمكن أن نتنبأ بملامحه البشرية مهما أوتينا من قوة التخيّل والبصيرة ، فالملامح البشرية كما اعتدنا على تسميتها بغموض ، لا تتكّون كما هو رائج من الأصول والسلالات والأعراق الذائعة الصيت ، بل من فيض الأحاسيس والمهاوس والشكوك ، التي تقتحمنا لحظة المضاجعة الحرّة ، غير المقيّدة ، تلك اللحظة التي تجبل ملامح الوجه وتقدر تجاعيده خارج الزمان والمكان مثل الحديد المصهور الذي لا يتشكل الاّ في القوالب والصهاريج الفولاذية والصوانية الجاهزة ، وهكذا هو الجنين الذي كنا نترقبه ، وهو يأخذ شكله المؤقت في لحظة هاربة من لحظات القذف الرجولي في رحم المرأة ، بوتقة انصهار الأجناس والملامح والحيامن ، تلك التي ننسى فيها النظر الى وجوهنا في المرآة ، أو بالأحرى في وجه المرأة التي نضاجعها وسط إنبهارنا بلحظات اللّذة ، المفلتة من قيود

الزمن ، لكن المضاجعة العاتية ، لحظة غير محسوبة في تخميناتنا ، ولحسن الحظ أنها مجرّد لحظة لا تدخل في ضمير تفكيرنا مهما إستحضرناها تبقى غامضة ، كوجه الجنين المنتظر ، لغز ، طلسم ، طوطم وملامح مجهولة أخرى . . وتساءلنا عن هذه الصورة المرتبكة :

– مَنْ يقدر أن يسبر أغوار هذا التشكيل الغامض الذي يشارك كلاّ من الرّب والانسان ، بقوتهما وضعفهما ، بهيمنتهما وذلّهما ، في الخلق والتكوين وتأكيد الذات؟

ما هو هذا الغموض ، خطيئة أطلقت لوثتها في عقلي ، ووصلت الى قاعه ، بقوة الغريزة ، وشدّت أنظاري بحبال وهمية صوب تلك النافذة ، نصف المضاءة دائماً ، ونصف المعتمة أبداً ، لتفتح في نهاية المطاف قدري على أفقه الآفل ، الفاجع بمزيج من لذة وألم ، طائر مشؤوم يحلق فوق الرؤوس ولا يعطي أية هدنة في هذا المعترك ، ويالحزني لم يكن يفصلني عن الخطيئة سوى خيط واه ، ما زلت أحترس منه على الدوام ، يدفعني بدافع آدمي وحيواني ، الى اشتهاء زوجة الأخ المحرّمة ، وأي أخ ، أخ عاجز مثل عبد الرحمن . ويالبؤسي ، في هذه المراوغة اللاإنسانية التي أحاول تغليفها بقشرة إنسانية فارغة ، أو أطمح لتبرير خطيئتي ، معللاً ذلك بأني لم أكن أعرف النساء ، المحتشمات بالعباءات السوداء غالباً ، وبأكداس من القيم . ومن حق أخي أن أعترف له بأني لم أفكر بالحب حتى رأيت شيرين فأصابتني بنصل الغرام . أدركت بعد فوات الأوان ، بأن جزءاً كبيراً مني مات اثناء مضاجعتي لها ، هذا النصف الذي يكافح ، على الدوام ، من أجل إبعاد الخطيئة عنه ليلصقها بالمرأة . لا أدري كيف وجدت في نفسي القوة لأقترف هذه الخطيئة ، الفاجعة . ولإصلاح ما اقترفته كان لا بد أن أفكر بمشروع زواجي من شيرين ، لأضفي الشرعية على فعلتي وأسدل ستار العزوبية وما يشوبها من شائعات .

أليس من حقي أن أتساءل :

– لماذا نلهث جميعنا وراء سّر اشتهاء البطن الأنثوي المنتفخ؟ هل لأننا نركض وراء هاجس البقاء حتى لو كان مزرياً؟

الخطيئة ابتدأت منذ اليوم ، الذي استلمت فيه برقية من أمي تستدعيني في أسطر قليلة لحضور عرس أخي الصغير ، هذا العرس الذي كُتب له الفشل ، ليطلقني في هذه الدوامة . كنت أشعر بأن ثمة شيئاً سوف يحصل ، ويمزّق علاقتي بأعز كائن لدي : أمي ، ولأجرح أخي في قلبه ، لا لكي ينزف دماً بل لينزف ألماً أحمرَ ، يتقطر على دفعات ، الى أن يحوّله الى أحد المعذبين على الأرض ، لا بخطيئته بل بخطيئة الآخرين ، التي لا تغتفر .

٢

حملت أمي أطباق الطعام الى غرفتها رغم مشاجراتهما العابرة ، منتهزة هذه الفرصة المشروعة لدخولها غرفة العناكب ، لتضع أذنها على بطنها المنتفخ لتتأكد من خفقان قلب الجنين ، وبالتالي من وجوده ، بعد أن ملّت رؤيته في الأحلام على شكل مولود غريب الأطوار ، أشبه ما يكون بجنين اسطوري ، قادم من عمق التاريخ ، بوجه ملائكي وجسد ثور هائج بذكورته ، نوع من الذكر المدغوم بالأنثى والانثى المدغومة بالذكر . لكنها لم تعتقد ، ولو للحظة واحدة ، بفكرة التناسل السائدة في أعراف النساء ، بأن كل شيء يخلق ضده من ذاته : الضعيف ينجب القوي ، والعاجز ينجب الشهواني . . وهكذا هو الرماد الكلامي الذي يتناثر من أفواه النسوة على وجوهنا ويغرقنا في بحر من الشكوك بذكورة أخي ، بل بذكورة الكون بأكمله . ففي نظر أمي ، ليصبح الكون رجوليا تارة وأنوثيا تارة أخرى ، ووسط هذا الهياج الباطني ، أطلقت شيرين فخذيها واسعاً الى الجدران المتقابلة ، على غير عادتها في

الانزواء والتكور ، كأنها شعرت بدنو ساعة الانجاب ، فيما تصعد نشوة غامرة الى وجهها ، وتنسج هالة بيضاء ناصعة مدّورة تشبه ثياب القديسين القابلة للتدنيس لأقل لوثة متطايرة في الهواء ، وامتدت هذه الهالة البيضاء سعياً لحماية ألوانها المهدّدة بالزوال وسط صلوات وثنية عجيبة الى قوى غامضة ، تعبر عن نفسها برمش الأجفان وحركة الأيادي وارتجاف الشفاه . وهكذا تهيأت شيرين ، وتأهبت لقذف الجنين من عرشه الأمومي ، الى حضيض أرضي أفقه حروب لا أهداف لها سوى إغراق بيادق البشر الهائمين في عجز جنسي لا حدود له ، تنسج فيها العناكب أكفاناً بيضاء ، ببطء يدوم أعواماً بل قروناً ، لأولئك البشر الذين ينزلقون من دهاليز الأم الى أفواه الحرب الظامئة لامتصاص هذا اللبيدو الذي إعتبرته أعلى سلطة في البلد حاجة فائضة يجب صهرها في أتون الحروب . . أجل هكذا وبالحرف الواحد ، تحسست الأشياء التي تدور من حولي في منزلنا ، والباعث الوحيد لكل ذلك هو ان ينجب الآباء آباءً فقط أما الأبناء فهم ، منخرطون في الموت المجاني ، شاؤوا أم أبوا . وهكذا استحال عليّ أن أفرّق جسد شيرين في هالة البياض تلك ، وتأهبنا جميعا ، وحبسنا أنفاسنا ، وأجّلنا التعبير عن ردود أفعالنا ، في انتظار المولود الجديد ، حفظه الله من أي مكروه ، فيما اكتظت العناكب في كل بقعة من الغرفة ، وتأهبت هي الأخرى مثلنا ، لاستقبال المولود الجديد ، وكأنها تعرف تفاصيل حياتنا أكثر منا ، مستجيبة لغرائزنا ، في محاولة لإلغاء عقولنا . خيّل لأمي ، رعاها الله ، بأن الجنين المرتقب لا يعدو ان يكون قبضة من رياح الخريف الصفراء ، خالقه شيطان استبطنها ، مختفياً تحت جلدها ، لينفخ بطنها ، وربما هو الذي طردنا من جنتنا ، عرش الرحم ، وقذفنا في هذا الحضيض ، لكن هذه اللعنة ما تزال تلاحقني ، لعنة هذا البطن المنتفخ ، حين ولجت الى أعماق ظلامه ، عبر غابة زغب كثيفة ورائحة عابقة زكيّة ، وبوابة لحمية

مغلقة ، خطيئة سأتعرف إليها عندما يأتي الجنين ، الذي صرخ في أذني ، فيما ازدادت هالة البياض وبهرت الأبصار ، مما أضفت على المكان غموض الحمل وأسراره اللانهائية ، وبدت جهودنا وطموحاتنا الإنسانية تافهة ، ولا معنى لها ، بدون تلك الليلة ، لأننا لم ننفك من التفكير بنسج قبورنا أثناء المضاجعة الخائفة ، الوجلة ، تحت أعين الحراس ، وما زالت هذه العناكب ، كأنها انقلبت الى ألد أعدائنا ، تصنع بيوتها الواهية بكبرياء وثقة دون أن تعرف بأن ضربة جنين ، عابثة ، قادرة على تمزيقها وتحطيمها وانهاء امبراطوريتها ، الهشّة ، الجبارة ، في آن واحد ، سرعان ما يطأ رأسه الأعمى هذه البقعة الملعونة من الأرض : غرفة العناكب .

ورددت الجدران فجأة صدى هذه العبارة :

- هذه البقعة الملعونة من الأرض!

وتجرأت أن أرفع صوتي وأكابر :

- كيف تصبح أرض الأنبياء ملعونة؟!

وضحكت في سّري من هيجان التساؤلات المنهكة هذه ، وعدت الى نفسي ، وما أقترفته يداي ، أو بالأحرى ما اقترفه جسدي من خطيئة ، بتدخلي الأناني الغريزي ، الذي أصبح فاصلاً في تاريخ أخي العاجز ، أجل ، هكذا ، وبهذه البساطة المبتذلة ، حشرت غرائزي في هذه المعركة بعيداً عن قواي العقلية ، دون لياقة أو احترام ، بعد أن أمضيت سنوات الزهد ، واغلقت منافذ جسدي في مدينة نائية ، نساؤها أشباح سوداء ، تتجول في الطرقات ، بمشية عوجاء ، وبعجيزات بدينة متدلية ، تثير القرف اكثر مما تثير الهواجس الجنسية .

٣

وهكذا اكتشفنا ، ذات صباح ، بأننا تحولنا الى أجّنة تستقبل الأحداث بتلقائية باردة ، يحركنا هاجس النمو وامتصاص القوة من بقايا دم نازف من الشرايين وقطرات عرق لزجة خارجة من مسامات الجلد . ولم يكن بطن شيرين المتزايد في الانتفاخ الاّ واحة من هذه الحيرة ، أكبر متاهة نواجهها ، فيما تمسّك أخي بحبل واحد ، رهينته الأبدية ، استعادة رجولته في حرب إبادة ملايين الحيامن قبل نضجها في ظهور الرجال المتسابقين نحو حتفهم الموعود . وتخيّل كل واحد منا ، أمي ، زوجته ، وأنا . . وآخرون تطوعوا لهذه المهّمة ، واهمين بأننا سننقذ مصيره من هذا العجز الرباني المنزّل ، ونحن نوغل في رمال متحركة تأكل القدمين بانتظار ابتلاع الرأس .

– ما هي هذه المتاهة يا ترى؟

خطيئة ، حيرة ، عجز ، رجولة ، أنوثة ، متاهة واحدة لا تفصل بينها الاّ خيوط بيضاء واهية ، تقسّم هذه المفاهيم وتجمعها في بوتقة واحدة

في آن واحد ، وتعطي تفسيرات لا متناهية تجهد تفكيرنا ، ماذا عن هذه الخانات التي لا نجدها الاّ في بطون الكتب أما تفاعلها الكيميائي فيحدث في الرأس ، مجتمعاً مرّة واحدة : الخطيئة إدمان بشري ، الحيرة بئر لا قرار له ، العجز ساحة قتال ، الرجولة كبرياء فارع ، الأنوثة قطة مقتولة . هذا ما نكتشفه عندما ندخل في قدّاس هذه الكلمات ، وما زلنا قادرين على خلق آلاف المتاهات الأخرى ، وحيرتنا واحدة على الدوام :

- ماذا ستنجب شيرين؟

صرخت أمي شاهرة يديها الى السماء :

- هل فضّ بكارتها أم هناك فاعل آخر؟!

هكذا إذن تسلّل عجز أخي الى أرواحنا ، وأحدث ما يشبه قرحة المعدة التي تكبر بمضي الزمن ولا تلتحم الاّ بالموت ، أخطبوط رخوّ بحركته الهلامية العمياء إزاء بقع ضوء وظلمة تنتشر في بطن شيرين ، نجهد أنفسنا لنفهم هذه البقع المظلمة والمنيرة دون جدوى فيما كان الجنين يخطط ، قبل مجيئه الى عالمنا ، لطردنا من المنزل ، ويسدل الستار الختامي على الجدل الدائر بيننا :

- هل خلقه الله واختفى وراءه ، متنكّراً وزاهداً في أمور البشر؟!

- اللعنة على هذه اللّذة الربانية!

- اللعنة على الظلم!

- اللعنة على العجز!

كنا نتحدث عن هذا العجز بأثواب خفيّة ، ألغاز غامضة ، روح غائبة ، وغالباً ما يستعاض عنها في الكتب بالنقط وفي الكلام بالشيء . .

- ماذا قلت يا أخي . .؟ اللّذة الربانية؟

- أجل .

دعني أقول لك بأن هذه اللّذة المحتكرة من الرب ، في خلق العاهات والمآسي والعذابات ، ما إن تخرج من أفواهنا حتى تموت ، أنظر الى أولئك الرجال ، وخصوصاً أولئك الذين بمنأى عن جبهات القتال ، يحملون معاولهم لاقتطاعها من أجساد النساء عنوة ، بإرادتهن أو بغيرها .

- ما هي؟

- اللّذة الربانية بلا شك .

يبدو اننا نصاب بالعجز كلما اقتربنا منها . .

اسمع ، أصْغ الى ثرثرات النسوة ، المتصاعدة ، المتعالية ، كاهتزازات الرنين الممزوج بَالهمسات المكبوتة ، التي تفوح منها رائحة مجتمع سّري من ساحرات ، يضعن عبد الرحمن وشيرين في محرقة أحاديثهن ، ويحولن مصيرهما الى رماد كلامي ، فتات ألفاظ ، هشيم جسد رجولي ، أنوثي ، عقاقير ، وأوهام فيما تردد ألسنتهن الثعبانية :

- هل يعني الابن نطفة فائضة نقذفها في رحم امرأة مجهولة في ليلة طائشة؟

- أبي الذي أعرفه جيداً . . أنت تلقي بي في هذا الكون دون مسؤولية .

- أية مسؤولية؟!

- مسؤولية إنجابي . . أنت لا ترى!

- ماذا أرى؟

- هذا المطر الأسود النازل علينا من السماء . . هذه الأطنان من الأسلحة المكدسة في بطون الجبال .

- عن ماذا تتحدث يا بني ، يا أيها الجنين الذي لم تتكون عظامك بعد . . عن هذه الحرب؟!

- كلا . . عن الحروب القادمة؟

- لا أعتقد بوقوع حرب أخرى بعد هذين الحربين .

- كيف لا تعتقد . . وأنت وأمثالك يعدون لها من وقود الأبناء ما يكفي لإشعال المئات منها؟!

كدت على وشك الجنون من هذا الهذيان الذي لم أكن أعرف مصدره بالتحديد . أمن هذا الجنين الذي يجهل النطق أم من أخي الصغير أم من شيرين أم من أمي . . ولعله يأتي مني أنا ، هذا الهذيان الشبقي ، المخزون ، والمؤجل في عينيّ أخي المريض ، بثّ الذعر فيّ من جديد ، ونبّهني الى ان العالم الذي نعيشه ، هش وضعيف وخائف ، مثل بطن شيرين الذي قد ينجب هذا الكائن العجيب الذي يلقي في قاعنا الأسئلة ثم يرحل . وتساءلت :

- ماذا يمكن أن يحمل لنا بطنها المنتفخ غير مفاجأة عجيبة ولغز محيّر ، مصنوع من لحم ودم وقيء؟!

وانتابتني فكرة جهنمية ، حارقة للذهن :

- هل يمكن ان يكون أخي وراء دفع شيرين الى أحضاني لفضّ بكارتها؟!!

انتظرت قليلاً قبل أن أجيب نفسي :

- ولكن كيف يمكن لزوج أن يدفع زوجته لمضاجعة أخيه؟!

لا يمكن أن يكون أخي خنزيراً لا يغار على أنثاه ، هذه هلوسة ، سخافة ، لا مثيل لها ، صلافة تعتريني أثناء لحظات الإحباط اليابسة ، لا أكثر ولا أقل ، وربما أنني فضضت بكارتها في الحلم ، عادة كمعظم أفعالي التي أراها منجزة في عقلي فقط ، هذا المعذب الأزلي بسبب أخطائه . ومَنْ يقل ان أمي لم تكن وراء كل أفعالي .

- أريد أن أرى أولادك قبل موتي!

هذه العبارة السحرية دخلت الى رؤوس الأبناء مثل دودة جائعة تدخل الى الاذن ، لتصنع مزيداً من الأبناء ، الديدان ، وما حصل

فجأة ، وقلّل من شهية الإنجاب ، موت الأبناء الواحد تلو الآخر بالرصاص الرخيص المستورد بمئات آلاف الصناديق ، ولم تكن مهمة هؤلاء الأبناء سوى صنع الأعداء ، سواء بالتقارير السرية على الورق أو في الواقع . واكتظت بلادنا بالخنادق والمتاريس والملاجيء والحفر والابنية الغامضة ، واللافتات والصور والمشاريع القومية . . وتعالت أصوات المذياع لتعلن ثمن المكافآت لصنع مزيد من الأبناء . وانتفخت جدران منزلنا بالسؤال التالي :

- مَنْ يصنع الأبناء يا ترى؟!

الأبناء لا يصنعون الاّ تحت قشعريرة اللّذة القصوى ، عندما يخرج المرء من جلده ليدخل جلد الآخر ، فالابن حتى لو كان ضالاً لا يستنكر سلوك الأب بل ينظر اليه برأفة وحنين وإعجاب ، وربما هذا ما يجعلنا نتعلق بالأبناء حتى لو كانوا يحملون أبشع العاهات ، تلك هي الحلقة المفقودة في بهجتنا ، حجر عثرة أمام سريان الدم وانتقالاته العجيبة في الشرايين . وكلنا يتساءل :

- ما هو هذا الجنين؟!

أول ما يتشكل فيه العينان ، نقطتان تتألقان لتريا أفعالنا ، لأن الخالق بحاجة دائمة الى شهود العيان ، أناس ، بشر ، حيوانات ، حكام ، يؤيدون أفعاله ، ويصفقّون لنجاحاته ، ويتسترون على إخفاقاته ، فالعيون أكبر شهود عيان عرفها الخالق لأنها تمتدح خوارقه قبل اللسان .

- مَنْ يتجرأ أن ينكر العينين؟!

حتى أكبر المجرمين العتاة يرتبكون أمام العيون ويتقهقرون أمام بريقها ، وجنين شيرين المنتظر ، لا يرى ما يحدث بمنزلنا بل يسمع خطوات اقدامنا وينتبه الى أنفاسنا المرتعشة .

- ماذا يعرف هذا الجنين عن أبيه؟!

أنا نفسي لا أعرف أي شيء عن نفسي ، وهذه النطفة التي جبلت

وجوهنا ، هذه العجينة ، ما إن تتلاشى حتى نعيش من أجل أن يستمر العذاب الإنساني الى ما لا نهاية ، وقد حاول الكثيرون إيقاف هذا النزيف بخلق عذاب آخر .

– أليست جهود أمي وعقاقيرها وأدعيتها وابتهالاتها محاولة لايجاد مخرج من هذا العذاب؟!

٤

وفكرت أمي بالطلاق كمحاولة لإنقاذنا من هذا العجز المتضّخم في رؤوسنا كحيوان مصاب بالسرطان ، ماذا ينفع الطلاق الآن بعد أن أصبح الجنين حقيقة لا نبتعد عن لمسها الاّ بشهرين . كان كل شيء ممكنا قبل ان ينتشر العجز ويضرب أطنابه في أرواحنا ، لم يعد الأمر يخص أخي وحده ، بل جميعنا أمي وشيرين وأنا ، لم يعد مفيداً أن نطرح السؤال المؤرق والمألوف والعادي :

- يا إلهي من أين جاء هذا العجز؟!

سيبذل هذا الجنين جهوداً هائلة لفهم ما كان يجري في مساحة عقولنا ، ولربما سيحتاج الى قراءة مئات المؤلفات العلمية والنفسية والاجتماعية . . ربما لفهم دمعة ذرفتها أمي ، أو إيماءة قامت بها شيرين ، أو نظرة ألقاها علينا عبد الرحمن . . ولا أقول ما أحسست به من مشاعر باطنية ، عسيرة الفهم في ربط الخيانة باللّذة وبالخطيئة . بدأ العجز يتجسد في كل شيء ، جدران منزلنا ، المرايا ، العناكب ،

الأكفان الجاهزة لقتلى الحرب ، أنفاسنا ، أساطيرنا ، فناراتنا المخرّبة ، أرضنا المشّعة بالتلوث الكيميائي وأشياء أخرى . . مثل الزهو والكبرياء .

أبعد هذا الخراب ينفع أن نقول :

- يا إلهي من أين جاء هذا العجز؟!

اذا كان سماويا ، فلا نمتلك الاّ مباركته لأننا حين اخترنا الحياة ، قبلنا بالعذاب ، هذا الوخز ، النصل ، الذي ينزل من سماء مجهولة ، ليستقر في أجسادنا كحشرة شرهة ، لا تمل المضغ والتهام الدم ، واذا كان عجزاً أرضياً آتياً من شخص أو شيء ملموس ، فلا بد لنا من لعنته والوقوف بوجه خالقه مهما أوتي من مهابة وجبروت ، وما بين العجز الإلهي والعجز الأرضي بون شاسع لا تدركه حواسنا ، وما بين حدودهما تنهار روايات وتظهر أخرى .

الشهر السابع

لم تكن قبّة السماء سوى نسيج أنثوي

تشرين الثاني

١

طرد برد الشتاء رياح الخريف اللاهثة بعنف وقوة جعلت عبد الرحمن لا يرتجف من هذا البرد بل من مصيره الذي تراءى له مدّونا ومنقوشاً على جسده ، أبر ساخنة رسمت آثار وشم خالدة لا تموت الاّ بتلف الجلد وزحف ديدان الموت الجائعة لالتهام بقاياها الخضراء . ولعّنت أمي هذا الجسد الآدمي الذي فضح ما كان مستوراً لسنوات طويلة ، لأنه كان وما يزال فضيحة للروح . وحالة أخي دفعتني أن أفكّر بأمي : انها تمتلك جسداً أيضا ، أهملته كأي أثاث قديم ، عديم الفائدة ، مات صاحبه ومالكه ، أبي ؛ الجسد لا يعيش سوى مرّة واحدة ، ومع رجل واحد ، وليس له في نصيب الحياة الاّ فرصة واحدة : يكون أو لا يكون ، في عمر الثلاثين انتهى كل شيء ، وأغلقت هذا الملّف المؤرق مرّة واحدة والى الأبد . وللمرة الأولى ، تجرأت أمي ونظرت الى وجهها في المرآة ودهشت لانتشار خيوط التجاعيد فيه . وتساءلت :

- يا الهي ما الذي فعله بنا عبد الرحمن؟!

رجال المدينة المحترمون ، الواثقون من رجولتهم وعضلاتهم ، بدأوا يقفون أمام مراياهم دون خجل ، ليتأكدوا من صحة ذكورهم . . بل أخذوا يرتجفون أمام هذا النذير المهّدد لكل ما هو رجولي ونابض بالعضلات .

-ما الذي فعله بنا عبد الرحمن؟

أنه كشف عن مدى غرق عائلتنا في أوهام الطهر والعّفة وتسترها وراء كلمات براقة فضحت كل ما كان مختفياً تحت جلودنا ، القريبة والبعيدة عن سطحه ، مثل رياح غير مرئية ، دخان مخدر ، ودخان قاتل كالخردل ، رائحة حيوان مذعور أنهكه الجري . انها وبلا تردد ، ليلة العرس المشؤومة ، وضعت كل واحد منا عند حدود جسده ، وقدره المصنوع بإتقان شديد ، ولكن ما الذي حصل بالفعل للعريسين؟ انطلق كل واحد منهما ، في سعي محموم ، لخلق جحيم الآخر . . بل وجحيمنا على السواء . إنهما ينامان على سرير واحد ولا يقدران على سرد تفاصيل هذا العجز بلغتنا المعتادة ، الجاهزة ، من ركام الكلمات . وفي كل محاولة من محاولاتهما لاجتياز هذا الجحيم بأثواب حديدية واقية ، كنا نتسائل :

- هل الجحيم من ابتكار الرّب أم من ابتكار البشر؟!

ولم تغب عن ذهن عبد الرحمن الجنّة التي تصنعها خيوط العناكب لشيرين ، التي كافحت لتحرير جسدها من الآلام وأمدّتها برغبة جديدة فيما أبقته سجيناً بين جدران العجز . ومثلما كان أخي يتضاءل تحت عجزه كانت مدينته تتآكل تحت عبء تاريخها القديم الذي تحاول استعادته ، لكنها في كل مرّة تسبح في دماء أبنائها الطيبين ، المخذولين ، المهانين ، في القلاع التاريخية المنتشرة هنا وهناك . . وقد تحولت الى شاهد عيان على ذلّ الهزيمة التي لم يتجرأ أحد من الأبناء أن يسميها باسمها . هذا الليل ، ليل مدينتي ، يعّج بالنكاح الليلي

والصباحي ، دون جدوى ، دون أن تنتفخ بطون النساء ، عجيب هذا الأمر ، ربما أصيبت الحيامن بالإشعاع المجهض ، ولكن كيف ينتفخ بطن شيرين من زوجها العاجز؟! هذا هو الدوار الذي لا منفذ منه ، الحلقة المفرغة التي يتسابق أهل العلوم وأهل الدين في إيجادها وتفسيرها .

- يا الهي ما الذي فعله بنا عبد الرحمن؟!

تردد أمي بحزن .

٢

في لحظة صفاء وموّدة بين أخوين ، قال لي :

-منذ ذلك اليوم شعرت بأن شيئاً ما بدأ يخدعني ويتحايل ضدي ويريد تدميري!

- أي يوم كان يقصده أخي ، يوم اغتيال ابي ، يوم ختانه أم يوم إصابته بشظية الحرب؟!

لم أتجرأ أن أخوض في التفاصيل المحرجة ، أحسست بأن صرخة تحاول الانطلاق من أعماقه لتفصح عن حقائقه الدفينة .

بدأت حالته الصحية تتردى ، جلده يفيض مثل ثوب فضفاض على جسده ، الصغير ، لائذاً الى الصمت ، وتاركا الحديث عن الخوارق والبطولات الى الرجال الآخرين ، المتكاثرين بصخب حولنا تحت ظلال الحرب ، فقد مات معظم أبطال هذه المدينة دون صخب ، هناك في جبهات القتال ، ودفنوا بأكياس مطاطية في الخنادق التي حفروها بأيديهم . لم ينقطع عبد الرحمن عن التفكير بمصائرهم ، وهذياناته

الليلية تشهد على ذلك الاّ أن تخليه عنهم كان مؤقتاً ليتفرغ الى مصارعة المارد الذي يتحرك داخله ، رافضاً الخروج منه ، بل مصّراً على تدميره وتحويله الى قزم يتجول بين عمالقة وجبابرة من ورق . وأحس بضرورة أخذ زمام الأمور بيده إزاء زوجته والعالم بأكمله ، فضّ البكارة والدفاع عن الوطن . وفي لحظة ما شعر بالخجل وهو ينظر اليّ قائلاً :

– هل تعتقد ان بريق هذه الكلمات سوف يستمر الى ما لا نهاية؟!

ثم أضاف بيأس :

– كيف نحدّد اللحظة التي لا تعود فيها الحياة جديرة بأن تعاش؟

اختبأت هذه اللحظة بين أكداس اللحظات التي لم نعد نعبأ بوجودها ، تلك التي تظهر ، ذات يوم ، كعدو يرتدي قناع صديق ، يتآمر بخفيّة وخبث ، لأن سلاحها الوحيد هو المباغتة . هذه اللحظة تآمرت على أخي وأركنته الى قاع العجز ، ظهرت كنبات ضار وسط مزرعة مزدهرة .

قال كمن يعود الى هاجسه الأول :

– كيف أتمكن من التسامح مع هذه اللحظة؟!

رآها ، في تلك الأثناء ، كبقعة ارجوانية تتلألأ من بعيد ، تجرّ بصره الى المجهول ، وتباغته كالانتقام ، واللعنة ، طاردة كل الطمأنينة التي عرفها قبل ليلة العرس .

– وماذا يعنيه هذا العرس؟

– أن يتزوج عبد الرحمن .

– ومن بعد ذلك؟

– أنت تعرف . . كل شيء انقلب ضدّنا وكأن اللعنة أصابتنا .

فكرت أمي بأشياء مذهلة ، عجيبة ، لا يمكن تصورها . العاهرات عقاقير ذهبية ، يطلقن في جسده لهيب الشبق ، هاهي ذي مضارب الغجر تجول حول مدينتنا ، تجذب الرجال من احضان زوجاتهن . . لماذا

لا يذهب إليهن عبد الرحمن؟!

- الغجر!

- ولِمْ لا . . ألسن نساءً؟!

- ولكنه ليس علاجاً .

- لنجرّبه يا ابني .

بدأت شيرين تبعث في نفسه القرف من رائحة الجنين ، المجهول ، الذي لا يعرف ملامحه ، فيما عدا ما اجتهدت به أمي من ملامح متخيلة ، من لحم وجلد ودم وغرائز .

٣

- ماذا يحصل لو توقفت هذه الشبكة الأنثوية عن الإنجاب؟

عصرت ذهني في محاولة للبحث عن الإجابة ثم قلت في نفسي :

- ربما لتستمر في قراءة مصائرنا!

وكررت التساؤل على نفسي :

- ولكن كيف ياإلهي؟ كيف؟

انها تنسج خيوطها الأفعوانية ، اليقظة ، والمتحمّسة ، بين كلمات وعبارات مبعثرة في صفحات الكتب المكدسة هنا ، والمحظورة ، بعيداً عن عيون الرقباء والجواسيس والمخبرين الصغار .

وانفجر في رأسي سؤال آخر :

- ما عسى لهذه الكلمات والعبارات المختارة من قبل العناكب أن تفعل لأخي العاجز ، غير القادر على افتضاض بكارة زوجته؟

حاولت يائساً في حمى المعاني وفوضى الكلمات ان أكتشف سّر هذا الكون الذي شيدته عقول معذبة وأرواح حزينة ، دون أن أتمكن من

العثور على معنى العجز عند أخي ، لكنني اكتشفت بأنها تغور في باطن القواميس والمعاجم بحثا عن مسمّيات أخرى لا نعرفها في عبقرية الكلمات التي تولّد فينا صداع الرأس ودهشة الحواس ، وبعيداً عن نباهتها وخططها الخبيثة ، فهي الوحيدة القادرة على القراءة الصحيحة والبارعة في انتقاء الكلمات ذات السحر المستديم ، التي لا تصدأ إثر الاستخدام اليومي . وبدأت أجمع تلك الكلمات والعبارات علّني أجد معنى لحياتي وحياة أمي وأخي وزوجته .

- هل كانت أمي على حق عندما كانت تردّد بأن العناكب لا تفكر الاّ بنقل أرواح الموتى الى الجحيم؟

- أي جحيم تقصده أمي؟!

أنه بلا شك الجحيم الأرضي الذي أهمله المؤلفون ، وتركوه للعناكب وخططها الخبيثة في اصطياد المعاني البشرية ، ولو قدّر لأخي أن يجمع تلك الكلمات والمعاني ، وهو المولع بكتابة الشعر والمسرح ، لوجد حقيقته بعيداً عن جميع الكتب العلمية الجامدة . ومثلما لا تستطيع العناكب الكف عن صنع المصائد للحشرات الضعيفة والقوية ، لا نستطيع نحن أيضا الكف عن صنع الرموز ، ليستغلها الآخرون ، في تحويل فوضى تجاربنا الحياتية المذهلة الى مجموعة متسقة من المعاني الطّنانة ، مثل معنى تلك الصورة المعلقة على جدران جميع البيوت دون استثناء ، العنكبوت الضخم ، الخرتيت ، الذي غطى كل شيء بنسيجه اللانهائي الخادع أجيالاً امضت تحت ظلاله حياة ساذجة ، بل وانقرضت والرصاص ينغرس في صدرها ويدفن معها في القبور ، أو واصلت الحياة بعاهاتها الأبدية ، معتقدة بأن تلك الصورة ، قبة السماء ، تبارك أفعالها وتمجّدها وتحميها من السقوط في الحضيض .

كان على عبد الرحمن أن يتزوج ليكتشف ذلك النسيج الخادع دون أقرانه الذين ماتوا أو أصيبوا بعاهات مزمنة ، ولم تتوفر لهم فرصة

الرؤية . وتساءلت في هذه الحمى الصاعدة :

- هل حاول أحد منا تمزيق هذا النسيج الخادع والتخلص منه؟

لا أحد . لأن من كان يتجرأ على هذا الفعل يُقتل في الحال ويُملأ فمه بالرصاص . وكلما أصاب هذا النسيج نوعٌ من التمزق أو الشقوق بادر الأزلام المدججون بالسلاح إلى نسج خيوطه الواهنة في أوقات نومنا أو قيلولتنا أو راحتنا ، ونحن ما نزال نبحث عن المعاني التي ضيعناها في زحمة البحث عن الطعام - القوت ، مثل بحثنا عن هذا العجز الألهي ، الخارق ، في ضحكات شيرين الهيستيرية ، وهي تقف بقامتها الفارعة ، تسلخ بسوطها جلد زوجها لتخرج من جسده الواهن عرق الرجولة ، ولو قطرة منه . ومنذ تلك اللحظة ، رفعت رأسها عالياً في صحن المنزل ، وأخرجت سوطها الذي دفنته تحت سراديب الخوف زمناً طويلاً ، وتطايرت النيران من عيني أمي لصراع السلطة الخفي في المنزل ، تلك التي كانت حكراً لها ، وفشلت في إرغامها على دسّ رأسها في رجولة مؤجلة ، محتملة ، قد تخرج من غياهب الأنفاق ذات يوم . واتسعت الفجوة في رأسيهما وتصاعد الصراخ الى الحجرات ، ثم انخفض الى الحضيض .

- ما هو ياترى ذلك الصوت؟

انه مزيج من صراخ مخنوق ، شخير متقطع ، طنين بعوض هائج ، أصوات طلقات نارية ، ونباح كلاب معذبة ، واقتحمت رأسها فكرة جهنمية : أن ترمي كومة عناكب على وجه زوجها النائم ، وتخنق أنفاسه مثل بعوضة أو ذبابة ، ومن ثم تلوذ بالفرار . . الى أين؟ مع رجل آخر ، في هذه البقعة الملتهبة بالحروب . وضحكت من فكرة الانتقام السخيفة . وقررت أن تذهب الى أقصى الحدود في عجز زوجها لتكشف عن سرّه وغموضه والتباسه . وهكذا بسطت أنوثتها ، بطنها المنتفخ ، مثل قائد منتصر ، يتبختر بعصاه ، بين أشلاء القتلى الغابرين ،

وهي تتمتم :

- العجز . . شرك ، حفرة ، مستنقع . .

وعندما رفعت رأسها عاليا الى رقعة السماء من نافذة غرفتها ، لم تر سوى ذلك النسيج الخادع الذي غطى المخلوقات الأرضية الهائمة .

٤

غضبت أمي ، وثارت ثائرتها ، لاعتصام شيرين في غرفة العناكب ، وتكدست القمامات المصنوعة من المطاط حول سريرها ، وخرجت العفونة على شكل رياح ملوثة ، تزكم الأنوف . لم تكن يد التنظيف تصل الى هذه الغرفة . ولم يكن هناك حل سوى اخراج محتوياتها كافة واحراقها في صحن المنزل . أجل ، هكذا ، وبالحرف الواحد ، قررت أمي بأن النار أكبر مطهر للأدران كلها ، وقادتها الى الحمام العمومي عنوة ، رغم انتفاخ بطنها ، وثقل سيرها على الأقدام . وهناك تناهى الى سمعها قصة ابنها على ألسنة النسوة ، اللاتي يسعين لتحويل ضجيج الحمام الى جمل وعبارات متناسقة ربما : تسرد حكاية عبد الرحمن وشيرين التي وجدت آلاف التفسيرات بين هذه الجدران الساخنة ، المليئة بالبخار ، وبقايا الجلد النسوي الميت إثر حكّه بقطع الطابوق الأصفر . نيران تطّهر ، وأوساخ تعلق في الأذهان . هاهي ذي شيرين ، قلعت أثوابها الفضفاضة وبدت عارية في الحمام . وعاد السؤال

السرمدي القاتل الذي لم يجد أية إجابة :

– من أين جاء هذا البطن المنتفخ وزوجها ما زال عاجزاً؟!

كان لا بد للبطون النسائية أن تنتفخ بقوانين وأوراق مختومة ورجال أصحاء . وقد باغتتهم أمي ، وهي سردت لي ما حصل ، بأن الحرب حوّلت حيامن الرجال الى سموم قاتلة ، حيامن تنتج الأجّنة برؤوس الأفاعي . يارحمن ، ياستار ، ما هي هذه الحرب لكي تتدخل في صيرورة الحيامن الرجولية وتقلبها رأساً على عقب الى محلول غريب آخر . انظروا . . انظروا الى أطفالكم ، أرجلهم معوّجة ، ظهورهم منحنية ، قاماتهم قصيرة ، رؤوسهم كبيرة وأجسادهم صغيرة ، ماذا تريدون أكثر من هذه اللعنة الربانية؟! ماذا دهاكم حتى تصمتوا هكذا؟ هل تريدون أن يرموكم في فرن الحمام بدل الوقود حتى تصرخوا . . اصرخوا . . اصرخوا . . اللعنة على الثدي الذي أرضعكم . . وبعد أن رشوا الماء البارد على وجه أمي ، أفاقت من غيبوبتها ، دون ان تتذكر ما قالته قبل قليل . وبعد عودتها ، صرخت في وجه شيرين :

– اتركي زريبة العناكب من أجل هذا الطفل .

لكن شيرين أصّرت على عنادها ولم ترضخ لإرادة أمي ، بل غضبت من تنظيف الغرفة ، وحرق العناكب ، التي سرعان ما عادت في الليل لتنسج شباكها في السقف وعلى الجدران وراحت تتصارع كعادتها ، من أجل اصطياد ذبابة تائهة ، لم تحرّك بصرها عنها كقدر إلهي خارق تماما مثل قدر زوجها الذي حاول أن يتخلص من عجزه شهوراً طويلة ولكن عبثاً . . لان الخلاص من هذا العجز اقتراب من الرب ، فالاقتراب منه لا يؤكد سوى عجزنا ، واللذة لم تكن أبداً من صنعنا بل من صنعه هو ، الذي كلما أمّدنا بالعمر جعلنا نرزح تحت عذاباتها . وفي لحظة معينة ، أدرك عبد الرحمن ان كل ما خلقه الله وهم ، حتى أجسادنا ، وتساءل :

- أليس الزهاد أقوى العاجزين على الإطلاق؟

- لماذا؟

- لأنهم أدركوا بأن العصيان ضد هذه الإرادة هي نقل اللّذة من أجسادهم الى عقولهم!

لكن عبد الرحمن أخفق في أن يصبح زاهداً ، بل جندياً ، يحمل بندقية ولا يؤمن بحربه . وربما لذلك ، أخذ المرض ينتصر عليه كما تنتصر العناكب على الحشرات القوية في غرفة شيرين .

الشهر الثامن

لا يجيد الإله سوى صنع الكلمات!

كانون الأول

١

ادخّر أمطاره الغزيرة حتى هذا الفصل ، فيما كان عبد الرحمن مرتخياً في فراشه يتأمل القطرات النازلة عبر نافذته المطلّة على الصحن ، وعندما أحسّ بالضجر من رنين الإيقاع الرتيب ، سحب أطراف اللحاف المزركش ، بنقوشات أمي ، الى رأسه ، وطمر رأسه في ظلامه المصطنع ، يتحسس ملمس القطن الناعم بوجهه ، مبتعداً عن رؤية أثاث العرس الجديد ، تلك الطمأنينة المؤقتة ، التي لا تلهيه أبداً عن الذهاب بوعيه ، دون إرادته ، الى جوهر ذلك اليوم الذي وضعه على عتبة عالم جديد ، مزيج من ضجيج أنثوي صارخ وكوابيس فجر يتفتت الى بياض مبهر للعين ، آنذاك أدرك ، بشكل لا يقبل الشّك ، تورطه في تتبع مجرى الذاكرة ، ليكتشف بنفسه الشلل الإلهي ، قطرة دم تخثرت في رأسه ، وانتقلت الى خصيتيه العاريتين من الزغب ، لتطلق سّمها العتيق في الحيامن وتغلق عليها كل منافذ الخروج ، وتفحص جوهر عجزه :

- هل يمكن أن يموت قضيبه قبل رأسه؟!

عاد الى مجرى ذاكرة العزوبة ، السنوات التي ظهر عليها آثار احتمال وقوع الحرب ، من جميع المظاهر العسكرية : الثكنات ، العتاد ، الأناشيد ، وغيرها . . سنوات الطهّارة ، كما يحلو له أن يسمّيها عند مقارنتها بأوضاعه الحالية ، تلك التي أمضاها وحيداً ، منعزلاً ، في أبراج لا تعرف كائناتها الطمأنينة . تباً لهذا اليوم الذي أصبح فيه مخصّياً في عالم ذكوري غاشم ، لا يعرف الرحمة . . ورأى بأم عينيه ، قضيبه ، غابة العروق اللانهائية ، يتحول الى زائدة لحمية ، جلدة واهية ، خالية من الشعيرات ، تكسوه بثور حمراء اندملت وبقيت قشورها . حاول أن يداعبه وهو مختبئ في الحجرة القطنية ، ليتأكد من الإحساس ذاته مئات المرّات إن لم تكن آلاف المرات . . تلك الطهارة ، التي كان فيها سيداً للغباء ، في عالم لا يتوقف عن إنجاب الفواحش تلو الأخرى دون قياس . وسأل نفسه السؤال الأغبى في عمره :

- ماذا لو ظلّ يعيش في كنف أم كانت تدفعه الى عتبة الجحيم دون أن تدري؟

بدا له ذلك اليوم بعيداً ، مثل فنار مهجور ، مرصد ، هجره المتقاعدون الى الأبد ، اذ لم يفكر لحظة واحدة بأنه يقفز من عالمه الأمومي الآمن الى عالم أنثوي معبأ بالهواجس والإغراءات المستحيلة . كان على هذا الصّبي الشقي ، المحكوم بالعجز ، أن يقطع تلك المساحة المفروشة بالجمر المتّقد ، بقدمين عاريتين من أحضان الأم الى مخالب الزوجة ، لكنه لم يكن يقدم على ذلك من تلقاء نفسه لولا القوانين الصارمة في الزواج والإنجاب وتفريخ الأولاد وقوداً للمعارك ، وفي هذه المسافة ، يتساقط الأبناء الواحد تلو الآخر ، وهو كلما أسرع في ركضه ، ازدادت حروق قدميه العاريتين بالجمرات اللاهبة ، الأم تمدّ يدها والزوجة كذلك ، لكنه ينأى عن الاثنتين ، مفكراً بالنسخ الأبدي ،

بالأرض المظلمة ، المليئة بالعروق ، والديدان والنمل ، الحيّ المتحرّك ، تحت قدميه ، وهو يعجز عن مناجاتها أو تقليدها ، وهي تتنقل من قدميه الى رأسه ، مبتهجة بالشمس والريح والمطر ، ولا ينفك السؤال الأبدي يطرق جدران رأسه المنهك

– هل العجز الذي يقوّض داخله من ابتكار الله؟!

فاذا كان هذا هو الأمر ، يعني أن تصرفات الله الذي آمن به طيلة حياته ، دون أن يحتاج اليه مرّة واحدة ، وصلت الى حدّ اللامبالاة ، بل والاستخفاف بالطاقة البشرية العظمى ، اندفاع ملايين الحيامن الهائجة في حمى الحرب ، لتمنح الأمهات كائنات ذكيّة وخبية ، تبني وتهدم ، تحب وتقتل ، تصنع الحرب وتصنع السلام ، ثم اتكأ على ركبتيه الواهنتين كأنه يؤدي آخر صلاة له :

– أكل هذا الخراب تصنعه حيامن جاهلة ، أحكمت سيطرتها على الجسد في لحظة غفلة من تاريخنا الطويل؟

حيامن الحرب الهائجة ، اللاهثة ، يقتات بعضها من بعضها الآخر في اشتباكها ومعاركها للوصول الى قارة الحياة ، الفرج الأنثوي الملعون في هذه الحرب ، أجساد محشوة بحيامن الخراب ، وهو بعيد عنها ، ويفكر بإبادتها قبل أن تنضج وتواصل الهيجان واللهاث والقتل . هاهو يرى خراب الأبنية والجسور وبدالات التلفون ومراكز الكهرباء وخزانات توزيع المياه والملاجيء الأسمنتية ، لا بد أن يترك كل هذا الخراب ، ويرمم شيئا في داخله ، العجز المخيف القادر على خلق أنفاق ، جهنمية ، مظلمة ، وفارغة في روحه ، وعاد الى ذهنه السؤال الأبدي الذي يحوّل الكلمات والعبارات الى تساؤلات مزعجة وملّحة :

– إذا كان هو بصقة الإله ، صورته ومرآته العزيزة على النفس ، لماذا إختار جسده ليكون ميداناً لتجاربه الخارقة؟!

وأقنع نفسه في تلك الليلة بأن الله جعل منه نموذجاً لحكمته

الباطنية السحيقة ، لكن عبثاً انطلق السؤال الأبدي من رأسه ما دام قضيبه غير قادر على الانتصاب ، ولو لمرّة واحدة ، ليتعرف على سهر هذه اللعينة ، ابنة حوّاء العاهرة ، في مظهرها الكئيب بعباءتها السوداء نهاراً وشكل جسدها الهيجاني العاري في الليل . هذا السؤال فتح عقله على اللّذة البعيدة ، تلك اللّذة ، تلك التأوهات ، التي يسمعها أثناء مضاجعة زوجته مع العناكب .

وانتفض من فراشه فجأة ، ورمى اللحاف القطني المزركش أرضاً ، وراح يحّدق في المرآة ، ويفكر بحيامنه ثانية ، تلك العاجزة عن إنتاج ابن شبيه يحمل رايته بعد موته ، ويحكي آلامه لبشر لم يعرفوا قصته كما ينبغي . وكم كان يرغب في العيش طويلاً ليسرد آلامه بنفسه ، بعيداً عن أوهام الأبناء ، ولكن ما عساه يفعل أمام عجزه الذي ظهر ، في هذه الليلة العزلاء ، مثل فتات فحم أسود لا يراه في دورة تكونه . وحاول في هذه الليلة الصاخبة أن يصّهر كل لياليه الماضية في صهريج نحاسي ، ويسكبه على سريره ، بعيداً عن قرع الطبول وعزف الآلات الموسيقية الرتيبة ، وعندما فشل في تحقيق ذلك ، توّجه الى وسادته الحريرية ، المعبأة بالريش ، ينهشها بمخالبه ، وينّثرها في أرجاء غرفته . أحسّ في تلك الليلة المباركة والملعونة في آن واحد ، بأن شيئاً ما أفلت من بين أصابعه ، لّذة مطمورة وموؤدة في لحظة ولادتها ، ابتعدت عنه وتحولت الى نقطة إشعاع ، بقعة ذهب أصفر ، يمتصّ من داخله كل الأنوار ويحولها الى فتات فحم أسود . وكلما نظر الى لذته الميتة ، أبصّر فيها صورة الله الذي أمسك بقدره مثلما يمسّك شيخ متآكل الوجه خرز مسبحته القديمة . هكذا شعر بأن قدره سقط مثل شهاب هرم أو نيزك مهووس من أبراج السماء الشاهقة ، ويشق ببريقه المتألق الأرض الى مقاطعات وأقاليم وخنادق مدججّة بالسلاح .

ليلة مشؤومة ، بدأ بها يعيد النظر في مشيئة نفسه ، تاركاً مشيئة

الله للعباد الساذجين الذين شرخت الأرض العارية جباههم من السجود اليومي الرتيب ، ولم يتركه السؤال الأبدي الى طمأنينة النوم :

- هل خانه الله في لحظة الخلق؟!

كان مضطراً للنظر الى حكمة الله بشيء من السخرية ، بل وبشيء من الاستهزاء لأن حكمة فقدان اللّذة ما هي الاّ عجز إلهي أخرق ، حكمة بليدة ولدت من لحظات الانتشاء بالقوة ورسم مصير الآخرين ، لا أكثر ولا أقل ، اتخذ الله قراره في لحظة أنانية ، في ليلة فاحمة السواد ، كأنه بصق بحكمته من الأعالي لتتناثر مثل غبار ، قمل سرمدي ، يتوالد من ذاته ، ويلتصق بالجلد البشري ، تلك الحكمة لم تفعل سوى كبح أنفاسه ، وتحويله الى حيوان ، ملتوي العنق ، يركن في زاويته مثل كلب منبوذ ، يستنجد بفتات الطعام والعيون البشرية .

- لا . . لا . . لست كلباً منبوذاً!

أفاق من كابوسه وصرخ :

- أهذه حكمة إله نزيه ، منصف بين البشر؟!

ثم تلمّس شفتيه المرتعشتين ، ودهش لجرأة الكلام الذي لم يصب فمه بالشلل الكامل ، وما إن تأكد بأنه ما يزال قادراً على النطق ، نظر عاليا الى صندوق الأحجية الذي لفته أمي بقماش حريري أخضر ، وقذفه من النافذة ، فتناثر مصيره في أوراقه الصفراء الجافة ، وتطايرت حكمة الله في أدراج الفناء . وشعر برعشة حادة تمتد الى قلبه ، كأن سماً صعد في عروق دمه ، محاولاً القضاء على صوته وحركته . ثم أرسل نظره عبر النافذة الى الأمطار الغزيرة ، حرّك يديه ليتأكد من وجودهما ، وصرخ ليسمع صوته ، دون أن ينسى تلمس قضيبه الواهن مرة أخرى ، غير عابيء لا بحكمة الله ولا بحكمة البشر ، ثم جال بنظره عبر النافذة ثانية ، وارتعدت أوصاله لفعلته المشينة ، وتوقع أن تتحول أوراق الأحجية المكتوبة بالآيات القرآنية ، الى صفائح وشظايا

حديدية تقذفها الرياح في وجهه وتحرق ملامحه ، وصلى في نفسه صلواته الخاصة ، البعيدة عن صلوات أمي ، فتناهى الى سمعه صوت رياح هوجاء مثل نذير شؤوم ، كأنها تهدد باقتلاع غرفة عرسه ، وترمي سرير الطهارة في الأوحال ، وتعيد الدواليب والصناديق والكراسي الخشبية الى جذوع أشجار وحشية ضخمة . وتبادر الى ذهنه بأن أول ما يطير من غرفته ، السقف القرميدي ، وينكشف عرّيه الكامل أمام الله ، وتحسّس الكون بملمس يده عندما تلمس قضيبه في تلك اللحظة . لم يكن الكون بأكمله يحمل له تلك الهواجس الليلية بقدر ما يحمله له هذا العجز المفاجيء ، ونهض ليغلق النافذة ، ليسدل الستار على هذا المشهد ، ولكي لا يصاب بالزكام الذي يلزمه الفراش أياماً ، ثم عاد الى فراشه ، يفكر بشيرين المعتصمة في غرفة العناكب ، وبأصدقائه الجنود الذين يذهبون الى آلهة الحرب كالقرابين ، الواحد تلو الآخر ، معبأين بكل الحيامن الهائجة التي نزلت من ظهورهم لحظة الموت وذهبت سدى لتختلط بالتراب الأحمر الذي اعتاد أن يطلق عليه الوطن ، وتمتم في نفسه :

– ماذا يعني له هذا الوطن المترامي ، المدجج بالأسلحة والمقسّم الى مقاطعات وأقاليم ومناطق؟!

وبعد أن تيّقن من خواء جسده ، هذا الذي يشهد على احتضار مدينته تحت وابل المطر الأسود ، ولا يكف عن الهطول على جسده من ثقوب السقف ، فيملأ مساحات جلده الدقيقة مثلما تملأ بقع الزيت الطافية رئات الأسماك .

٢

في هذا الصباح الباكر ، انهمكت أمي بتهيئة متاع السفر ، كيس من طعام وخبز وفاكهة وترموس شاي ساخن ، لزيارة أضرحة الأولياء الصالحين ، المبعثرين في ضواحي مدينتنا ، يسيطر على ذهنها هاجس البحث عن العقاقير والحرز والأحجية والنصائح ، لمعالجة عجزه ، وقد بدأت قبل تناولنا لفطور الصباح ، تسترسل في دعاءاتها وابتهالاتها بذكر أسماء الأولياء الصالحين الراقدين في الأضرحة ، على قمم الجبال وفي بطون الوديان ، أولئك الأولياء الغرباء ، المنفيين ، البعيدين ، الذين قتلوا طعناً في ظهورهم ، بوحشية وغدر ، وشيدت لهم فيما بعد أجمل الأضرحة الرخامية وأحلى القباب الذهبية ، فهي تعرفهم جميعاً ، النبلاء والصعاليك ، الأقوياء والضعفاء ، الناقمين والراحمين ، لكنها لا تطمع بشيء منهم سوى علاج لأبنها . قبل أن تؤدي طقوسها ، وقفت على عتبة الضريح ، وأرسلت نظرها الى السماء التي انفطرت فجأة الى نصفين ، وظهر لها وجه الله ، يتقطّر حزناً رهيباً ،

كآبة إلهية رأتها لأول مرّة ، فيما أحاطت به الملائكة المحلّقة ، تهزّ مراوحها السماوية لتخفف عن وجهه وطأة الحزن ، وتمتمت في الفناء الممتد :

- هل وصلت حالة ابني الى أن يحزن عليه الإله؟!

ولم تمتلك الاّ أن تغتسل بهذا الحزن الإلهي ، الذي يتشابك مع الآلام البشرية ، واعتبرته حزنها ، لايمانها العميق بأن الله يقف مع المظلومين دائماً ، ورغم ذلك تساءلت :

- وهل هناك مظلوم مثل ابنها على وجه الأرض؟

ثم قالت بصوت عال :

- كيف تآمر الإله فيّ الخفاء ضد ابنها وألصق به أحقر الأمراض؟!

وغاب وجه الله الحزين من رقعة السماء ، ثم استدارت الى الضريح ، تجرّ أذيال خيبتها ، وحزن آخر لم تعرفه الاّ في هذه الليلة ، نوع من الحزن الذي مزّق أحشاءها ، وجعلها تعتقد بأنها ربما أخطأت في التوجه الى الله مباشرة دون المرور بالاولياء الصالحين . لملمت إيمانها مع سجادتها الرّثة التي لفتها تحت ابطها ، وجمعت في وشاحها الأبيض كفين مليئين بدموع حامضة ، وقررت الدخول الى أضرحة الأولياء الواحد تلو الآخر ، أولئك المنفيين الذين آمنت بمشاطرتهم حزنها أكثر من الأولياء المتنعمين الراقدين تحت القباب الذهبية ، وقالت في نفسها :

- مَنْ منهم أقرب الى الله؟!

فاجتاح جسدها رعشة باردة التهمتها كالخدر ، وهي تراجع عبارات الدعاء التي أطلقتها في حضرة كبير الأولياء ، المنفي ، الشهيد ، المغدور في ظهره ، الفيلسوف ، العادل ، الراقد في نعشه الذهبي والمغطى بصدقات الحلي الذهبية والدنانير الرخيصة ، وهمست الى الجدران ، المتألقة برهبة الزخارف الشهيدة :

- كيف تتجرأ امرأة مثلي أن تطلب من الأولياء أن يبعثوا الحياة في ذكر ابنها؟!

وتساءلت في سرها :

- هل يعقل أن أطلب هذا المراد من ولي طاهر قد لا يعرف طعم المرأة في حياته؟!

لم تكن أمي تفكر لحظة واحدة بأن الأولياء والأنبياء كانوا يضاجعون ، ويتغوطون ، ويبولون ، ويتقيأون ، ويتآمرون . . . ويتقاتلون مثلنا . . . في هذه الحرب .

٣

عادت أمي الى المنزل بعد أن أمضت ثلاثة أيام في زيارة الأضرحة ، فبدأت النسوة يتقاطرن علينا ، ويتزاحمن في طرح الأسئلة عليها ، لكنها تغيّرت في كلامها وسلوكها ، وكان لون قماش جدران الأضرحة الأخضر ما زال لاصقاً على وجهها مثل فيض عشبي أخضر ، طحالب خضراء مضاءة بحزمة ضوء في قاع البحر ، وقد تصلّب اثر اقتحام إذنها صوت خرج من تحت أحد الأضرحة مخترقاً القبّة الذهبية الشاهقة ، وامتلأ نظرها بمنظر الملائكة المرفرفة بأجنحتها والمرحبة بزيارتها ، وكانت تردد ، على الدوام :

- يا ربّ اغفر لي!

قالت إحدى النساء إن حارس الضريح انسحب حال سماعه بدعائها العجيب الذي لم يسمع مثيلاً له طيلة خدمته في هذا المكان ، بينما أطلقت النسوة الأخريات ، الغارقات في عباءاتهن السوداء العنان لأدعيتهن في الحمل والإنجاب والزواج والانتقام والإثراء ، لكن أمي لم

تكن تفكر الاّ بابنها العاجز ، ولم تسمع أية إجابة صريحة على دعائها رغم أن صوتاً غريباً تدفق من تحت الضريح واخترق القبّة الذهبية ، وأعلن بأن دعاءها سوف يستجاب في ليلة يتحول ظلامها الأسود الى ظلام أخضر . ومنذ ذلك اليوم ، راحت تنتظر على دكة غرفتها نزول الليلة الخضراء ، وتحلم بفناء الضريح المشّع بلون الأشجار الخضراء . واستولى عليها هذا الهاجس حتى فكرت بأن تستبدل بكفنها الأبيض الذي خزنته في الدولاب كفناً أخضر . وظلت تخشى بالاّ ترى تلك الليلة الاّ في ظلام القبر .

وبعد أن أصاب التعب ذراعيها الممدودتين الى السماء ، أدركت بأن الله المناصر لها ، لم يكن يستمع الى دعائها المستمر بسبب مشاغله الكونية مثلما لم يكن يسمع أنين الجرحى وأمنيات الشهداء ، وهي تحلم ، بين حين وآخر ، بقدوم الليلة الخضراء ، وسط ركام الليالي السوداء ، التي تتناثر على رؤوسنا ، وتلتهم خيوط الضوء بشبق ، لتحوّل كل شيء الى فحم قاتم أسود ، لكنها أصّرت ، بعد عودتها الى المنزل ، على ترديد دعاءاتها وابتهالاتها المعبّرة عن إيمانها بالعناية الألهية ، التي آمنت بأنها لن تتخلى عنها لحظة واحدة ، يحدوها أمل واحد بالاّ يكون الله متقّصداً في صنعته ، عجز إبنها ، وهو القادر على أن ينفخ فيه ملايين الحيامن الحيّة : كنْ فيَكُنْ!

وتمتمت بارتعاشة أمل :

- هل يفتخر الإله بصنعته؟

ثم فكرت في سّرها بأنه لا بد أن يكون هناك سوء فهم حول اختيار ابنها ليكون نموذجاً لتحّمل هذا العذاب :

- إذا كان الله يحبها كما آمنت لماذا اختار ابنها المسكين ليصّب عليه جام غضبه؟!

وذهبت بذهنها بعيداً الى صلوات السنوات العجاف التي مرّت

برمش البصّر دون أن تجني منها شيئاً لابنها ، فقد انتظرت هذا الشهر بأكمله ، تجرّب كل أنواع العقاقير والنصائح والأحجية والدعاءات المستجدية من الأولياء ، وتفوّهت في لحظة تردد :

– هل أشرفت خوارق الأولياء العجيبة على الانتهاء في عصرنا؟!

كانت دعاءات أمي تهيم تحت القّباب الصفراء ، المطلّية بإيمان الفقراء وثرواتهم الذهبية ، وتختلط بلحظات شك العابدين ، وتتبخر في أدراج الرياح ، وامتصت المومياءات المقدسة كل تلك الدعاءات مثلما تمتصّ إسفنجة ضخمة قطرة ماء ؛ وبدأ كنز الإيمان الذي ادخرته أمي يتزعزع ، بعد أن تألق في أعماقها طيلة سنوات عمرها ، كقطعة ذهبية ، بعد كل هذه العبادة ، بين جدران منزلنا ، والتوجه الى الله فجراً وصباحاً وظهراً وعصراً ومساءً ، الاّ يحق لها أن تقطف ثمار إيمانها ، الذي رعتّه مثل نبته وسط صحراء هذه الأعوام . . وماذا ينفعها الله اذا كان عاجزاً ، هو الآخر ، عن مساعدتها في محنتها الكبرى . وبدأت تتردّد في فرش سجادتها الرّثة الصغيرة وإطلاق عقلها وروحها الى الجبار المجهول ، ولعنت الأرض التي تسير عليها ، وتعاطفتُ مع أمي ، بل وبكيتُ معها ، طارحا السؤال نيابة عنها :

– هل أن طلبها مستحيل حتى إنه لا يستجيب لدعاءاتها أحد من الأولياء أو الله؟!

يبدو أن دعاءاتها المستميته ، ذات الألفاظ المستعارة من الله ، لم تصعد قط الى السماء ، بل ارتدت وسقطت على رأسها كاللعنة ، ولم تسعف أخي كومة الخرق الخضراء والأدعية وقناني الماء المقدس ، بل زادت من اصفرار وجهه ، وانهيار جسده ، وتدهور صحته ، وبدت لي أمي المشّبعة بروائح الأضرحة من بعيد ، مثل معبد راسخ لا يزعزع إيمانها جحافل الملحدين بسيوفهم البّراقة وحماستهم الصاخبة وألفاظهم الرذيلة ، وتدلى إيمانها الذي زرعته في نفوسنا منذ الطفولة ، مثل هالة

بيضاء ، من قبّة السماء ، على شكل أضرحة ، كنائس ، محاريب ، مساجد ، معابد وثنية عمياء ، تهاوت كل هذه العمارات الحجرية والورقية والوهمية على الأرض ، وانهدمت مثل كومة من الأشلاء والصلبان والآلهة الصغيرة المصنوعة من الخشب ، وتساقطت أعماقها مثل ألواح ثلجية ذابت ، قطرات مطر وحشية ، تجمّعت في سدود ضخمة ، وتحولت الى شلالات عنيفة فظّة لا تنتظر شيئاً سوى اطلاق سراحها :

- مَنْ أطلق سراح الإيمان المتكدس في أعماقها؟

ورأيت وجه أمي ينجلي لماعاً مثل إناء فضيّ سهر على تلميعه صائغ كادح ، عيناها البرّاقتان ، شرارة ثاقبة ، كادت تقول لي بأني فعلت كل ما باستطاعتي من أجل أخي ، ولكن باقتراف الخطيئة!

٤

كانت أمي تتوحد مع أخي ، دون أن تعي ذلك ، وأصبح الاثنان يتشابهان في كل شيء . وبدأا يتفاهمان بالنظرات ، والإشارات . . وتبادل الأسرار ، فقد أفلت شيء ما من أعماقهما . . كان عبد الرحمن يخرج الى صحن المنزل ، بجسده النحيل ، يرسل نظراته الى غرفة شيرين ، وينزل البصاق اللماع من شفتيه المتدليتين ، قاذفاً من فمه خيوط شبق مجهض ، فقد نزع براءته ، وفرشها على الأرض ، كورع يكشف أسراره ، ويحملق بعينيه عالياً ، كأن عجزه أجّج فيه رغبة تمزيق رقعة السماء ، كأنه يتوجه نحو تمزيق ذلك الغشاء المغمور في أعماقه ، ذلك الوشم المطبوع باللون الأحمر على جبهته ، رأسه المعذب ، وجسده المعبّأ بشهوات ميتة ، يجعله يكرّر بالحاح :

- مِن أي شيء صنع هذا الغشاء؟

ثم فتح أذنيه لصوت مجهول :

- ليس هذا هو المهم بل مَنْ يمنح طاقة تمزيقه . . الملائكة أم الشياطين أم الله؟!

وارتفع الصوت :

- لا أحد يمنح هذه الطاقة سوى الله؟!

ونظر الى عجزه كمن ينظر في مغارة سحيقة لا قاع لها . وكلما حاول استجماع قوته وانتشال نفسه من هذا القاع المخاطي ، اللزج ؛ أحسّ بخواء متجّمد داخله ، بصيص باهت ، نشوة وأحلام وقطرة دم ولحم عار من الجلد ، مهاوي قبر ، درك نسيان ، غابة عروق ، أظفار ، مخالب ، مزيج من ماء وزيت ، لا يقدر على فصلهما أو خلطهما .

كانا يسيران ، هو وأمي ، الى عالم آخر ، ويطرحان التساؤلات المخيفة ، كان الاثنان يعتقدان بأن العالم بأكمله أصيب بهذا العجز ، وأمي عرفته في الثلاثين من عمرها ، قبله ، وأصبح أخي حديث المدينة بأكملها ، وكنت أصرخ في غرفتي :

- لماذا يصول ويجول مئات الرجال العنينون العاجزون عن إرضاء نسائهم دون أن تثار حولهم كل هذه الضجّة؟!

ولعّنت اليوم الذي أعادني الى مدينتي وحثّني على التفكير :

- أين الإله الشبقي الذي لا يوقف أحاديثه عن الجنس والنكاح والذرية وعذراوات الجنّة؟!

قلت والدمعة تنفجر في عينيّ :

- ألم تكن أمي على حق حين رفضت أن يتحول ابنها نموذجاً لتجاربه الخارقة؟!

واجهش الإثنان ببكاء مرير ، وهو ينظر الى صحن المنزل الذي غسلته أمي بدموعها ، وهي تتمتم :

- لا يجيد الإله سوى صنع الكلمات!

أغمض عينيه ، فرأى الملائكة تندفع على شكل أفواج ، الى صحن المنزل لتشن آخر معاركها مع عجزه ، بينما كان الإله يقهقه من برجه السماوي وينظر اليه كإحدى تجاربه على الأرض ، ساخراً من عذاباته

الشهر التاسع

الشبيه يهدّد بتخريب صرح البشرية

كانون الثاني

١

أطلقت شيرين صرخة مدوّية ، بعثّرت طمأنينة تلك الليلة ، سرعان ما هرعنا الى غرفتها ، ولم تندهش من رؤية نشر جيوش العناكب لأنسجتها المتشابكة على طول الغرفة وعرضها ، وغطّت مجال الرؤية . وبدأت لتبعثرها واضطرابها الغريزي من وجودنا ، تهتّز وتطلق رماحها وأسلحتها دفاعاً عن نفسها ، ولم يظهر تحت ذلك الغطاء المتناسق لا السرير ولا الأثاث المتروك ولا الكتب المبعثرة ولا المرآة . كانت تتنفس مثل حمى مرض زهري ، بلهاث آدمي ، غايته الاستيلاء ليس على الغرفة فحسب بل على منزلنا بأكمله ، وتبيّن في ثنايا الخيمة العنكبوتية ، الهائلة ، بأن الشيء الذي يهبط وينزل ، هو بطنها ، كيس يدخل فيه الهواء ويخرج بانتظام ، مبعثه حركة جنين ، يسعي للخروج من مغارته السوداء ، في حين غطّت أنسجة العنكبوت الفخذين المفتوحين ، ولم يظهر منهما سوى الركبتين الكالحتين ، وبقعة فرجها المغطاة بشعر كثيف ، تحركه دفقات رياح نجهل مصدرها ، وقد ظهر سريرها ، من النافذة ، كنعش تحرسّه عناكب مدججّة بالسلاح ، فيما

انسدل شعرها المبعثر على جسدها العاري ، تحركه رياح خفيفة تدخل من تحت الباب ، وتخلّطه بظلال شعاع الضوء الزاحف في أركان الغرفة ، وقد بدأت بفتح فخذيها الى حافات السرير ، كأنها همت بإنجاب صغار ، وتولد هي الأخرى من نفسها ، وتتبرج داخل قشرة بيضاء ، أخطبوط يلّد من أحشائه ، أو جنين يخرج من جنين الى ما لا نهاية ، وبطنها لم يستقر على حاله بل ازداد انتفاخاً لدرجة أوشك على الانفجار ، ومن فرط ذلك ، انحصرت الدماء القانية في عروقها ، وتحولت الى زرقة تتخلّلها بقع سوداء ظاهرة . كان هذا الصمت يستولي على كل حواسنا ، ولم يكن يقّطعه سوى صراخ جنين ، مكبوت ، يحاول الانفلات ، والانعتاق من قيود الزغب واللحم والجلد ، وكأنه يتدحرج من مغارة عميقة ، مظلمة ، مليئة بالأحراش ورؤوس الأشواك ، واثناء ارتطامه بالجدران الداخلية الملساء ، كانت حركة البطن تتضاعف في الهبوط والارتفاع ، وفجأة تمزّقت شباك العناكب التي غطّت فرجها المفتوح ، العاري ، واندلق رأس الجنين ، ونزلت المعجزة على رؤوسنا ، وبدأت أمي بغريزتها الأمومية الفائضة تسحب بيديها المعروقتين رأس الجنين ، غير مصّدقة لملمس يديها ، وبايماءة من رأسها ، طلبت مني مناولتها للسكينة الملقاة على الطاولة ، فقطّعت الحبل السّري وخلصت الجنين من أحشاء أمه اللزّجة ، ثم سكبت قارورة ماء بارد على رأسه ، فنزل التراب العالق بجسده كعجينة سائلة ، وجفّفته بخرقة قماش ، فظهر وجه الطفل متألقا بجمال ملائكي لا مثيل له . جاء سيد الغرفة هذا الصباح ، بخطوات حذّرة مثل خطى ذئب ، وما إن أوشكت أمي على الانتهاء ، حتى حدّجتني بنظرات متفّجرة بالخبث والريبة من هذه الولادة العجيبة ، وبدأت النسوة اللاتي تجمّعن هذا الصباح بالهمس والتنبؤ بمستقبل هذا المخلوق ، وصرخن بشبق واضح

– ماذا نسمّي ابن الرياح؟!

أخذت أمي الجنين بين يديها المرتعشتين ، وهي تصرخ في وجوههن بفرح :

- وماذا تردن أن نسّميه؟!

ثم همست بعد مرور لحظات :

- عبد الرحمن!

وردّدت النسوة بعد تلاشي صوتها :

- عبد الرحمن . . عبد الرحمن!

لكني كنت أتمنى أن تمنح حفيدها اسما آخر من بلدان نائية ، من قرون سحيقة ، غير هذا الاسم ، لكن الرياح ، ربّة هذه الولادة ، ما كان عليها الاّ أن تلقي بهذا الاسم في قاع المدينة ، وتمزج صداه في دخان البخور ، ورائحة الولادة ، وعرق جسد شيرين . ولم تكن ملامح هذا الجنين بعيدة عن ملامح أبيه الحادة التقاطيع : عينيه الواسعتين ، ووجهه المدّور ذي الرصعة في أسفل الحنك ولون بشرته المائل الى الاصفرار ، وقلت في نفسي :

- أليس هذا هو الشبيه الذي حلم به أخي؟!

لكن هذا الشبيه لم يدفن شكوك أمي في صدرها المعذّب منذ تسعة شهور ، بل فجّر كل ظنونها الماضية بي ، وهي تجمع غرائز المرأة التنبؤية الخطيرة كلها في لحظة إشراقية مخيفة ، قائلة لي :

- لكنك الوحيد الذي كنت تؤمن بأنها حبلى؟

ثم صرخت في وجهي :

- أنت . . .

ولم تكمل عبارتها التي غرست في لساني الشلل ، وتساءلت بخجل :

- هل كانت أمي تراقبني مثلما كانت تراقب عبد الرحمن من ثقب الجدار؟!

دوّت في رأسي صرخة أمي ثانية وكأنها أبصرت من جديد فعلتي التي لا يمكن اخفاءها على وجهي . واكتظّت الأسئلة في رأسي :

- هل يمكن أن أنكّر ابني الذي طالما اشتقت لرؤيته؟!

وتراءت لي تلك الليلة مثل جحيم ينصهر في رأسي من مراجل سماوية واطئة ، وحاولت خجلاً أن أستعيد وهّج تلك الليلة الشيطانية ، التي كنت فيها أراقب شيرين تغمس جسدها العاري ، البضّ ، في شهوة حسّية تصنعها حركة العناكب والتواءاتها مع أمواج الريح ، فوجدت نفسي أزيل عن صدرها ونهديها وفخذيها تلك الخيوط اللاصقة ، اللّماعة ، ممّرراً يدّي في ثنايا غابة عذراء ، لم تطأها أقدام الصيادين ، حتى شعرت بثيابي تتساقط عني ، وتذوب خيوط العناكب اللاصقة بها ، فدخلت سرداب جسدها الملتّهب ، مطلقاً العنان لمزيج من لذّة وألم ودم قان وغشاء بكارة يتمزق ، وسط هالة بيضاء تبهر العيون بوخز مخدّر ، وتكتسح ظلام الغرفة . في هذه المتاهة ، كان عليّ إمّا أن أعترف لها بخطيئتي وأهدم الصرح الذي شيّدته في رأسها عني ، أو أن أختبئ وراء كذبي وأنقذ ما كان متبقّياً من إيمانها المتزعزع ، لكن أمي سبقتني الى تهديم كل الصروح ممزّقة المعرفة التي ادخرتها في رأسي والعجائب كلها التي ورثتها عن الأجداد ، متجاهلة هشاشتي التي كنت أغلّفها حين أواجه مصيري وحدي ، وتردّدت ، مثل كل الآثمين من البشر ، أن أفضح سّري خوفاً من لعنة الأم ، وأردت كأي مغامر ، يدخل حرباً خاسرة ، أن أضحي بصرح البشرية من أجل انقاذ نفسي من خطيئة لم أتعمد اقترافها أبداً . .

٢

لم يتحرك عبد الرحمن من سريره ، واكتفت أمي بحمل الجنين الى غرفته ، ولم تصدر منه سوى ابتسامة قصيرة ، لكن أنينه المكبوت لم ينقطع ، وجسده لم يتوقف عن التضاؤل في الشهر التاسع من زواجه ، وازدادت أعراض مرضه ، دون أن يفلح الأطباء في معالجته . وقد عمدت أمي الى لفّه بالأغطية مثلما كانت تلّفه بالقماط أيام رضاعته ، ثم بدأت زياراتنا له تتحول الى ما يشبه زيارة ضريح . في حجرة عرسه المظلمة ، كان نور معدني رطب يومض من مصباح صدىء ، يكشف عن عينين ذابلتين لاجئتين في محجرين سحيقين ، داكنتين ، وفم كاد يصبح خالياً من الشفتين ، ووجه اختفت منه الوجنتان ، ينظر إلينا كما لو يستنجد بنا بعدم تركه وحيداً ، معزولاً في غرفته . كان يرغب ، بين حين وآخر ، ومن خلال حركاته الإيمائية التي لا تفهمها الاّ أمي ، في رؤية شيرين ، ومن العجيب أنه لم يعبأ بابنه ، فقد أصابه دوي الولادة في الليلة الماضية ، بما يشبه الشلل ، فلم يعد قادراً على النطق ، ويعبر من غيبوبة الى أخرى ، كأن حيواناً ميتاً التصق داخل أحشائه رافضاً

الخروج ، ذلك الحيوان الذي كثيراً ما تحدثت عنه أمي وتخيلته كوحش يتعيَّشُ على طاقة جسده ، يمتص دمه ، ويلتهم ذكره . ولم تكن تصدر عنه سوى همهمات تلفظ اسم شيرين ، بشكل متقطع أثناء لحظات يقظته القصيرة . كان يخيّل إلينا بأن رأسه يكبر أثناء تضاؤل جسده ، وحارت أمي وهي لا تقول سوى :

- إنها الحمى!

حاولت مرات عديدة أن تضع ابنه بجواره على السرير ، وتضعه أحياناً على صدره ، لتقول له أن الشبيه الذي حلم به جاء إلينا الليلة الماضية ، لكن أنفاسه كانت تتدفق ، وتعلن نهاية رجل صهر كل العذاب في عينيه مرّة واحدة . فقد أغرقتنا حالته في حزن مستحيل ، وهو يستلقي تحت الضياء المنعكس ، من الأثاث الجديد البرّاق ، ومما ضاعف هذا ا لحزن مرآة طاولة الزينة ، التي عكست نوراً مشروخاً إثر انغراس أظفار شيرين فيها ليلة العرس الأولى مما أحدثَ جداولَ وترعاً غير منتظمة ، على عروق وجهه ، الذابلة والمضمورة ، وزاد من حدة تجاعيده ، كأنها خنادق قتال مهملة بعد انتهاء الحرب . وظهر التعب في أهداب عينيه ، اللتين أنهكتهما الكوابيس ، التي لم تجد ملجأ أكثر دفئا من هذين العينين ، مثلما لا تعثر الحيامن الشغوفة بالحياة أفضل من بقعة ملتهبة في رحم المرأة . هذه الكوابيس ، ببراعتها المذهلة في اختراع خيالات التعذيب الروحي والجسدي ، لم تمنحه أية هدنة ، بل كانت تقض مضجعه ، كلما هدأ كأنها تجّز جلدة شعره بشفرة موسى مثلومة ، وتوقظه من غيابه ، فتحول هذا الاستيقاظ الى نوع من الدخول في ألم باطني ، ليس جثمانياً ، بل آدمياً ، أوجاع مباغته تضرب قامته ، وتأتيه الغيبوبة كنصل طبي مخدّر ، يجعله يغور في أنفاق ألم كائن مهّدد بالزوال النهائي من الأرض ، والانحدار الى قاع العجز .

كان الناس يتوافدون علينا كالأمواج ، كأنهم يريدون ان يلقوا النظرة

الأخيرة على عبد الرحمن ، وتجتمع النسوة بجوار سريره ، ويتحدثن فيما بينهن عن أمورهن التي لا يفقه بها ، وربما يسمع بها للمرة الأولى ، ويكتفي بأن يوميء برأسه ، محاولاً الابتسام بمشقة كبيرة ، ولم يكن يتذكر منهن سوى تلك المرأة ذات الشعر الرمادي والوجه المشرق : أمي . هذا ما كان من شأن الحاضر وهناك مكان آخر تماما كان يوجد الماضي ، واضحاً تمام الوضوح ، متألق الألوان ، ممتداً بالقرب منه ، يرى فيه أمي وهي تمشط شعر رأسها الطويل في صحن المنزل ، وتحضر له فطور الصباح ، وكان قد استيقظ لتّوه ، طارداً من جسده كسل الليل وبقايا أحلامه ، وتراءى له الزمن ينقسم الى نصفين : قبل ليلة العرس وبعدها ، وما بين هذين التاريخين تمتد ظلال زمن غابر مثل سحابة متلهّفة ، تجرّ أضواءها الى صحن المنزل ، وتتم في نفسه :

– ما شكل الموت الذي يأتي على رأسه كنصل المخدّر؟!

كان يعرف الموت أكثر من أي إنسان على وجه الأرض ، فهو مهما يكن أقل رعباً من حيرته أمام عجزه ، وعليه أن يتحايل على شيء ما لغرض انتزاعه من رأسه ، غير عابيء الاّ بحركة الزمن البطيئة ، الزاحفة ، والمتجّهة نحو النهاية ، دون أن يصدق مشاعره كأن الموت يمازحه في تقرير مصيره ، وقد رآى في الحلم بأنه يتناول العشاء بصحبة زوجته في إحد المطاعم الواقعة على ضفاف نهر ديالى ، وهما يرتديان ثياب العرس الجديدة ، الاّ أن هذا الحلم سرعان ما انقلب ، وهو يرى حلماً آخراً أقرب الى تلك اللحظة ، ماسخاً كل أحلامه السابقة ، وقد تحولت شيرين الى عنكبوت ضخمة معلقة في سقف غرفته ، في أعلى سريره ، وهي تسخر من قواه الجنسية العديمة ، تتأرجح بخيط ضئيل يكاد يكون غير مرئي ، مثل خيوط تحرّك عرائس المسرح ، يحملها بأطراف حافاته الدقيقة ، ويهتز جيئة وذهاباً فوق رأسه ، ويكاد ينقطع بمجرد لمسة يد أو هبوب ريح خفيفة من النافذة ، وبتنامي اللحظات

وتلاشيها العابر في خزّان الماضي ، بدأت العنكبوت تتضخم تدريجياً ، ترتسم بين خيوطها المتشابكة ملامح وجه شيرين ، كما يرى صورة مشوهة في القمر ، ووصلت ضخامتها الى أنها فرشت رقعة السقف ، وإثر دوّي قصف القنابل وحركة الطائرات الحربية الأجنبية ، اهتز سّقف غرفته ، وتبعثر أثاث العرس الجديد ، وكادت الخيوط أن تنقطع لتتهاوى العنكبوت من السقف الشاهق على وجهه وتخنق أنفاسه ، وشيرين ثائرة تحاول أن تخرج من أسر العنكبوت المتدلي على رأسه ، وتخنقه حقاً في أوج عجزه مثل مخلوق ضئيل ، متواضع ، ومتضائل ، وللمرّة الأولى أبصر نهايته بيقين مطلق حيث لم تسع شيرين أن تصّب عليه لعنتها بل كانت تريد أن تصفح عنه ، لكنه لم يتح لها تلك الفرصة ، بل ظل هذا الكابوس يحوم . وقبل أن يغيب في سكرة الموت ، هذا الدهليز المظلم ، بدأ السقف يهتّز ، وتدلت الخيوط بالعنكبوت ، وانتشرت كخيمة ضخمة ، مبعثرة ، لزجة على أنفه وفمه ، وأغلقت مسالك تنفسه ، فانغلقت عيناه ، فيما انشغلت النسوة بتسخين قدور الماء الكبيرة وأحضر الرجال طاولة غسل الموتى من المسجد المجاور ، وعندما شاهدت أمي كل تلك التحضيرات ، ارتمت على جثته الضئيلة ، تبكي وتصرخ تارة وتضحك وتقهقه تارة أخرى كأنها لا تصدق ما ترى ، وهو مُسجّى على سريره دون حراك .

٣

ابني ، كم الساعة الآن؟!

المدينة نائمة ، وأنت أيضا ، بعد قليل سوف يستيقظ الجميع الاّ أنت . أتعلم بأن المشيعين جاؤوا قبل قليل وهمسوا بأذني بأن قبرك جاهز . كدت أصرخ في وجوههم : اذهبوا الى الجحيم ودعوني أسهر مع ابني سهرتي الأخيرة ، لكنهم فهموا ذلك دون صراخ . . . اعذرني ، يا ابني ، عليّ تبديل الشموع التي ذابت . ما الذي يحدث في هذه الغرفة؟ الظلام ينهمر علينا والمصابيح تنطفيء فجأة . آه . . تذّكرت الآن المصابيح تعطّلت على أثر قصف القنابل . . وكذلك حنفيات الماء ، لكن لا تقلق فقد أحضرت النسوة صفائح المياه وأعددنها لغسل جسدك في الصباح . كما ترى إنني أرافقك ، ولا أريد من يشاركني في ذلك أو يأخذ من وقتنا الثمين . سنقضي هذه الليلة سوية ، والمشيعون غضبوا مني كأنهم يريدون قبرك بهذه السرعة . لا تعتقد بأنني سأتركهم يأخذونك هكذا الى المكان الذي تكرهه . إنها الليلة

الأولى التي أشعر بها بأنني لا أقضيها وحيدة . بيني وبينك أشياء كثيرة أريد قولها لك . ومَنْ له الحق في أن يتحدث اليك غيري؟ هل نسيت بأننا كنا نتحدث دائماً؟! أنت تسمعني الآن رغم أنهم حشوا أذنيك بالقطن ، كأنهم يحاولون منعك من الاستماع إليّ . قل لي . . تكلّم ، قل لي أي شيء ، لأنهم سيأتون بعد ساعات لأخذك الى هناك وينتهي كل شيء . قل لي عبد الرحمن . . هل أنت متهيء؟ أنت الآن دون قلق ودون أية بقعة دم . لا تتّردد أبداً . لا تغضب . لم أكن أطلب منك أن تصبح بطلاً تظهر صورته على صفحات الجرائد . . لكنك بطل دائماً . هاهي ذي شيرين جاءت ، أتحسس وقع خطواتها ، حاملة بيديها حزمة شموع ، ربما سمعتني أقول بأن شموعك ذابت ، وربما جاءت لتبدّد حزنك وكآبتك . لا بد أن نضيء سوية ساعاتك الأخيرة . . قلّ لي بصراحة : الاّ تذكّرك هذه الشموع بشيء؟ كنت تحلم بهذا المنظر دائما : شموع موزّعة وسط الغرفة المظلمة . جثة ملفوفة بكفن أبيض . وصوت طائر البوم . الاّ تذكر مسرحيتك الوحيدة التي كنت تحلم بتمثيلها على المسرح .

نظرت الزوجة الى التقويم الشهري المعلق على الجدار وقع نظرها على صورة زوجها ببزته العسكرية انكمشت ملامح وجهها أزاحت ورقة من التقويم وطوت يوما بأكمله لم يبق من إجازة زوجها غير ثلاثة أيام أزاحت الستائر القاتمة من نوافذ غرفتها المطلّة على الفناء أغرقت نفسها في ضوء الفجر خرجت الى صحن المنزل غسلت وجهها بماء الحنفية الكائنة في الزاوية أخذت تراقب الأفق البعيد انطلق فجأة صوت طائر بوم انقطعت أنفاسها عندما رفعت رأسها لترى طائراً يحلّق في رقعة السماء كان صوت طائر البوم يملأ أذنيها بنعيب بارد كما لو كان يخاطبها أو يعلن عن نبأ أي فأل شرّ في هذا الصباح لوحت له بشالها الأبيض الذي اعتادت أن ترميه على رأسها في محاولة لطرده لكنه ظلّ

يرفرف بجناحيه ارتفع صوت طائر البوم ثم بدأ بالانخفاض تدريجيا الى أن تلاشى دخلت غرفتها وانهمكت في تسريح شعرها بمشط خشبي مندهشة لهذا الصوت ونظرت الى المرآة المعلقة على الجدار حيث عكست تفاصيل جسدها ياإلهي كم قبيح هذا الصوت النعيب الذي ينخرّ أذنيّ وما إن شعرت بأنه هدأ حتى سمعت طرقات حادة على الباب ظهر ساعي البريد بهندامه الرّث حزامه المرتخي سرواله العريض وحقيبته الجلدية الممزقة برقية برقية البرقيات مخيفة دائماً مثل نعيب البوم تحمل فأل الشر قرأ اسم زوجها أصبح في قائمة المفقودين الموتى الذين لا نعرف مصائرهم رفعت رأسها الى السماء رأت طائر البوم عاد من جديد يطلق نعيبه فأل شر يتناثر بين جناحيه قذفته بحجارة ظلّ يحلّق عالياً يرفرف بجناحيه ينثر غباراً يتساقط على رأسها اعتصمت في المنزل ارتدت ثوباً أسودَ أمضت النهار بأكمله في التحديق بصورة زوجها أوقدت الشموع وما أن جلست في الصحن حتى جاء طائر البوم ثانية يصفق بجناحيه ينذّر الغبار على رأسها فاختلط نعيبه بضربات جديدة على الباب وما إن همّت بالذهاب لفتحه حتى رأت خيولاً بيضاء تسحب عربة تحمل نعشاً على هيئة صندوق خشبي على الطريق الترابي المؤدي الى المنزل فتصاعدت غيمة من الغبار إثر امتزاج حركة عجلات العربة بقوائم الخيول وهي تغطي المشهد وتحيله الى كتلة رمادية لاح لها يوم زفافها على تلك العربة وما إن رفعت رأسها حتى رأت طائر البوم يحّلق فوق صحن المنزل ازدادت الطرقات على الباب فتحته فدخل أربعة جنود يحملون نعشاً ملفوفاً ببيرق ملوّن يتقدمهم ضابط أطلقت صرخة قبل أن تهوى على الأرض فاختلطت طلقات البنادق وزغاريد النسوة وما إن أفاقت من غيبوبتها حتى وجدت طائر البوم ما يزال يحلق في سماء المنزل خرجت أم الجندي من غرفتها تصرخ ابني ابني أصداء تتردد ابني زوجي تضرب

الأم بكفيها على صدرها تتنهد تولول تنتحب تتلوى ينهض ابنها من النعش الخشبي وجهه مطلي بمسحوق أبيض يرتدي بزة عسكرية لاصقة على جسده يهوى على الأرض تصرخ الزوجة تقع علي النعش المسجى على الأرض وتفك شعر رأسها وتتدلى على النعش وكذلك تفعل الزوجة . ثم تدوران ناشرتين شعرهما على اكتافهن تنطفئ أضواء الشموع وتحاول كل منهما أن تزيح عنه الكفن . مرايا . مقبرة لا متناهية .(قلّ لي يا ابني ، هل تكمل لي حديثك بعد موتك ، وهو مطمور في صدرك الآن وقادر على الخروج في أية لحظة . هاهو صوتك يظهر بالتدريج ، إنني أسمعك ، انطق قبل أن تنتهي ساعات الليل ونفترق في الصباح الى الأبد . . حديث العالم بأكمله بيني وبينك ، لا أحد يفهم أحاديثنا تماما مثل وصيتك التي لا يعرف عنها أحد . قلّ لي لماذا كنت تنظر لأخيك الكبير نظرات ريبة وشّك . كنت أراقبكما ، وقد صرخت في وجهه ذات ليلة قائلاً : أنت لم تفهم أمي! ثم أضفت كلاماً آخرَ لم أفهمه أنا : كيف يمكن أن تتنبأ بأفعال إمرأة ، خليط من شهوات وغرائز ورغبات وأفكار انتقامية؟! أكنت تتحدث عني أم عن شيرين؟! وبدأ صوتك ينخفض شيئا فشيئاً ، وأنت تردّد : هكذا تصورت بأن أمي كائن عجيب ، برج من حجّر ، تلّوحه الرياح والأمطار دون أن يتآكل . . إنها فكرة بِشعة تخز أذهاننا بإبر ساخنة . أنسيت أن أمي كائن من لحم ودم ، بل اعتقدت إنها تخلصت من فكرة الجنس ودفنته في قبر أبي ، ولم تكن عقاقير النسوة وفنونهن ونصائحهن سوى إهانة لها وتذكيرها بعجزي .

- أمي .

- نعم .

- لماذا تريدين معرفة أسراري كلها؟

- لا أريد أن أعرف سوى سر واحد فقط .

- أنت تعرفين أن السّر ما هو الاّ فاحشة ، كلما عثر الناس عليه يريدون معرفة المزيد .

- السّر الوحيد هو عجزك . . أنت تعرف جيداً .

- ينبغي أن أشرح لك ما هو الجسد . . واذا ما أردت أن أشرح لك ذلك ، فينبغي أن أقول لك كل شيء ، منذ أن تعرّفت على عالمك الأنثوي ، ولم تطلقي عليّ اسم عبد الرحمن الاّ لأنك تؤمنين بالأسماء المقدسة ، شأن جميع الأمهات اللاتي فقدن أزواجهن في سّن مبكّرة ، وتعلقّن بالابن الأصغر!

- عبد الرحمن .

- نعم .

- أما زلت تتذكر المهد الخشبي المزيّن بالأجراس والأدعية وضفائر الشعر المقطوعة .

- وأنت تداعبين شعري بأناملك الناعمة .

- شعرك الطويل .

- الذي لم تقطعيه الاّ في عمر التاسعة عندما دخلت المدرسة .

- وعالم أبيك .

- لم يكن سوى ظلٍّ من ظلال الموت ، يحوم في رأسي أكثر مما يحوم في رأس أخي ، ربما لأنني كنت في بطنك عندما انغرست في صدره رصاصات عدّوه .

- أبوك مظلوم .

- لا تبكي ياأمي ، لا تذرفي الدموع ، فما زال جسدي يرتعد ويتصبّب عرقاً كلما أرى قاتل أبي يجوب بكبريائه الأجوف أزقة المدينة ، طليقاً ، يتباهي بالشعر النابت في صدره المفتوح .

- كان أبوك ينتظر مجيئك دائماً .

- لكنه كان ينصحني في الحلم أن أتخلى عن فكرة الانتقام وأكون

أباً بنفسي .
- أنت أب الآن .
- أين ابني الآن .
- إنّه هنا ينظر اليك من مهده . . المهد الذي نمت فيه .
- والحمّام .
- أي حمّام؟
- حمّام النساء الذي كنت أصطحبك اليه وأدعّي بأنك أخرس لا تبوح بأسرار أجسادهن .
- آه . . وطردوني عندما أخطأت وتكلّمت!
- سوف نغسل جسدك بعد قليل .
- أما تزال أعمدة البخار تتصاعد من الدكة الاسمنتية . . والحنفيات الصفراء اللّماعة والأحواض الرخامية . .
- أجل .
- وهل تأتي النساء أنفسهن لغسلي بعد قليل؟
- أجل . . ولكهن عجزن الآن وملأت وجوههن التجاعيد .
- لماذا لا تتركين هذه الأحاديث ياأمي؟
- لا أستطيع . . إنها ساعات ونفترق .
- أنت تعرفين بأنني سأدخل قبراً رطباً ، مظلماً ، على الرغم أنه يشتعل بقناديل وهمية ؛ ها أنذا أرى أصدقائي الجنود الموتى الهائمين على وجوههم كأنهم يبحثون عن مخرج من هذه المتاهة ، لا أريد أن أبعث الحزن في نفسك . .
- أكمل يا ابني . .
- اقتربوا مني ، ونظروا الى بزتي الأنيقة بدهشة وبدأ كل واحد منهم يسرد لي قصة موته : الأول : أنهم ملأوا فمي بحفنة تراب عندما قلت لهم بأن حنجرتي جافة من الظمأ! الثاني : لقد قتلوني

وكتبوا على جثتي كلمة خائن ورموني في النهر . الثالث : تخيّل طار رأسي وظل جسمي يركض وحدَه مع الجنود الهاربين في ساحة القتال . الرابع : عندما مّت رأيتهم يمثلون بجثتي ويضاجعون زوجتي . الخامس : تصّور أن إخوتي أطلقوا الرصاص في صدري عندما تراجعت .

– كفّ عن كلام الموت يا ابني ، فأنت حيّ حتى الصباح ، عندما يحين وقت مجيء المشيعين ، ها هي ذي شيرين جاءت حاملة ابنك ، لكنني سأطلب منها أن تقرأ وصيتك قبل أن أسلمها لأخيك الكبير ، علنّي أتعرف على السّر الذي عذبني تسعة أشهر .

قبل كل شيء ، لا بد أن أعترف ، بأني لم أتفوه بشيء ، أي شيء على الإطلاق . إنه أخي الكبير ، الآتي من عزلته ، بعد افتراقه عنا سنوات طويلة ، هو الذي فضّح سّري ، ولم يكتف بذلك ، بل أطلق لوثته العقلية في أوراقه الصقيلة البيضاء ، دون استشارتي أو طلب الإذن مني ، خارقاً بذلك كل مواثيق اللياقة وأدب التهذيب والروح الأخوية . ماذا أقول؟ قبل أن تطأ قدماه منزلنا القديم ، كان مرضي سّراً من أسرار هذا الكون ، يشبه سّر الينابيع التي تتدفق من تحت ضريح مجهول أو مثل طحالب عديمة الجذور ، عالقة في قاع البحار ، فما كان لمشكلتي أن تكبر وتتفاقم لولا استدعاء أمي لك بغية انقاذي من هذه المحنة ، ليلة العرس ، لكنه عوضاً عن ذلك ، راح ينغمس في عالمه الخاص مبتعداً عنا مثل سفينة فقدت صواريها . لا أريد هنا ، وهذه ليست مهمتي ، أن أفنّد آراءه أو أن أعطي حكماً قاطعاً على ما كتبه عني في نمط الرواية التي أجهل أصولها ، غيّر أني أعتقد بأنه لم يصب قلب الحقيقة ، لأنني الوحيد الذي كنت أتحسسها مثل شعلة نار تأكل أحشائي بحيث تكون الكتابة عنها أمراً أشبه ما يكون بالمستحيل . لا أقصد من ذلك بأنه أخطأ في حقي أو أراد طعني ، لأنه اجتهد في

الكتابة عني بدافع الحب الأخوي الأعمى . ورغم تأثري الأليم من كتابته ، لم أسع الى تمزيق أوراقه الخاصة التي وقعت بين يدّي ذات ليلة عن طريق المصادفة المحضة ، احتراماً مني لهيبة الأخ الكبير وإخلاصاً للعبة الخيال ، مدركاً بأن ثمة مَنْ سيقرأ هذه الأوراق في أوقات فراغه ، يضحك أو يبكي ، يفرح أو يحزن ، يشعر بالعطف أو السخرية مني ، وربما يتمتع بعالم لم يعد ملكي منذ أن تحوّل دمي الأحمر الى مزيج من حروف وأوراق وحبر أسود وذكريات . وبسبب كتابته هذه ، خرج نبأ مرضي ، ولا أدري كيف ، من ثقوب جدران منزلنا ، ليتغلغل مندسّاً ، مثل حشرة خبيثة ، غير مرئية ، الى آذان الأقارب والجيران والمارة ، حتى وجدت أسمي ، بعد فترة وجيزة ، لقمة سائغة في أفواه الرجال والنساء ، يلوكونه في المقاهي والحانات والأسواق والمعسكرات ، ويطلقون الشائعات تلو الأخرى ، بل وصل الأمر بهذه الألسن الشبّقية ، والمتعطشة لكل ما هو فاحش من الألفاظ والكلمات ، لعقمها وجفافها وعجزها عن إنتاج الكلام الطيب ، أن تنادي بإبعادي عن المدينة التي ولدت فيها أو دفني حيّاً في مقبرتها أو حرقي في إحدى غاباتها النائية ، حتى اقتنعت دون إرادتي ، بأني تحولت الى ما يشبه العاهة أو الوباء الذي يهّدد المدينة بأسرها!

قد تتساءل ، أخي الكبير ، وأنت تقرأ وصيتي : هل تكمل قراءتها أم ترميها من نافذة القطار؟ لكنك حرّ ، وهذا من حقك في أن تقرأ وصيتي أو تهملها لكنه من حقي أن أسرد قصتي ، ومن حق أمي وشيرين أن تسردا قصتهما . أتمنى أن تحتفظ بالأسرار التي سأبوح بها لك والاّ تجعلها تنهش أعماقك من جديد وتقدم على تمزيق ما أنجزته من كتابة أو قد تقبل على مغامرة كتابة قصتي مرّة أخرى . واعلم بأني لم أبح بها لغيرك أبداً ، وخصوصاً أمي التي لم أسع الى مضاعفة آلامها ، رغم معرفتي بأن السّر لا يحفظه الاّ الموت لكني أرجو لك حياة فاضلة .

أعرف بأنك اعتقدت مثل أمي والآخرين بأن عجزي نزل من السماء ، لذا ارتضيت به تماما كما ارتضيت أنت بمصيرك وارتضت أمي وشيرين بمصيريهما . وها أنتم أولاء تنظرون الى منزلنا القديم المتهاوي ، من التآكل ، وهو يلفظ من جوفه التواريخ المستحيلة دون أن تمتد لها أيديكم لترميمها ولمّ غبارها المتساقط على رؤوسكم . وكم من الأحداث المولمة اعتبرتموها جزءاً من مصائركم المحتومة ، وهكذا ارتضيتم بعجزي لكنني لم أرتض به لأني أعرف سّره وخالقه ، وهو ليس الله كما توهمتم طيلة تسعة اشهر ، وسأشرح ذلك فيما بعد . ولو قدر أن تعرف سّر عجزي لكنت كتبت شيئاً آخرَ عن تلك الشهور التسعة ، ولفتحت صفحات جديدة من تاريخ كتابتك . ولعل من الأخطاء التي وقعت بها هو وهمك باستكمال معرفتك بشأن مرضي ، وذهبت الى الاعتقاد بأني تحولت الي كائن مكتف بذاته ، الى ربّ ، الى حصان تحرّر من لجامه ، وطوى عجزه في داخله ، زاهداً في أغلى غريزة عرفتها البشرية ، إغواء الأنثى ، ومَنْ يتجرأ أن يتخلى عن هذا الإغراء ، سّر وجودنا . كان عليك ويؤسفني أن أتكلم بهذه الطريقة ، أن تصغي لكل واحد من شخصياتك ، إن صّح التعبير على الرغم من أنك لم تتعامل معنا على أساس الشخصيات ، لانك كنت تكره هذه اللفظة التي كثيراً ما تتردد على صفحات الكتب بابتذال . وكنت تعيش هاجسك ، في قعر الكلمات ، حين كنا ننزع الجلد اليابس ، الميت ، عن أجسادنا كقشور فاكهة هشة . كان عليّ أن أفكر بعد الآن ، تفكيراً سوياً بعالم مليء بالمفاهيم الجاهزة ، وأغور في عالم تخلصت من براثنه منذ زمن طويل .

كنت تتخيل بأن كل شيء انتهى بالموت ، وهو خاتمة طبيعية لكل حدث ، لكن ما يحدث بعد الموت قد يزعزع كل ما كنا نطلق عليه الحقائق الصلبة . وأجدني حائراً من جديد أمام سّر هذا العجز الذي

تصورته منتهياً ، ليبدأ كالأخطبوط هذه المرّة ، ويلتف حول رقابنا جميعاً . وهكذا كنت تكتب عن يقظتي دون أن يخطر ببالك أن تكتب عن أحلامي وغيابي ، وأتساءل : كيف قدّر لك أن تنسى أحلامي ، نصف حياتي المجهولة ، تلك التي لم يقدر العجز أن يتسلل إليها لحظة واحدة .

لم يكن يهمك من شيرين سوى حياتها العارية في غرفة العناكب ولا يصلك صوتها ، أنينها ، كوابيسها ، واعترافاتها الباطنية . كنت تنهش لحمها وتترك عظامها ، رغم أنها لم تكن فريستك أو فريستي أو فريسة أحد . وأصبحت ، فيما بعد امرأة من نَسْج خيالك . ماذا لو عرفت بأنها أحبّت رجلاً آخر غيري ، وفقدته في اليوم التالي . وما تزال تحمل من تلك الليلة الجنهمية ، شرخ جسدها ، مزيج من لذة وندم وألم ، مع رجل هارب الى مصيره ، فاتحاً ثغرة ذلك الشرخ على مصراعيه ، بقوة ظلام الحرب . وفيما تمرّ الأعوام ، ترفض هي الزواج كلما طلبوا يدها ، ولا تملك سوى الرفض والبكاء والانزواء ، ولم يكن أحد يفهم لماذا كل هذا العناد ، ودون أن يتذكر أحد سواها ، موت الرجل الذي ذهب بعذريتها في خنادق الحرب . . ولا أحد يعرف أيضا سّر تلك الليلة التي أمضتها معه ، وهي تضحك في سرها على آراء صديقاتها اللاتي نصحنها بالذهاب الى أطباء بغداد لخياطة غشاء بكارتها سراً . وربما تتساءل بشيء من الدهشة : كيف تقبّلت الزواج من امرأة غير عذراء ، لكني أعترف لك بأني لم أكن أقدم على ذلك لو لم يكن مَنْ ذهب بعذريتها جنديّاً مثلي ، لفظّ أنفاسه الأخيرة ، متّذكراً تلك الليلة . ولو لم يمّت لما كان لأي منا أية مشكلة : هو ، شيرين ، أنت ، أمي ، أنا . وستعرف فيما بعد لماذا أقول ذلك . قد تبدو لك هذه القصة ساذجة بل ومضحكة لكنها حدثت في الواقع ، هذا الواقع الذي كثيراً ما نسخر منه ، ونعتبره سحرياً لا يخصّنا نحن بل يخصّ شعوباً

أخرى . هكذا حدثت القصة ، بكل حذافيرها : مَنْ ذهب بعذريتها مات في الجبهة! وألقت بظلالها المريضة على وجوهنا جميعاً : أنت ، أمي ، شيرين ، أنا وربما هو .

- عبد الرحمن .

- نعم . أنا هنا .

- أكملي القراءة ياشيرين .

والآن حين أتهيأ للنزول الى مأواي الأخير ، مودعاً عالمي الذي عشته بمرارة ، ينبغي أن أعترف بالسّر الذي خنقني لسنوات طويلة اذ لم يعّد الآن من ضرورة لإخفائه بينما كنت في الماضي مجبراً على إخفائه لأسباب قانونية وأخلاقية ومعنوية وعسكرية اذ طلبت مني إدارة المستشفى العسكري ، المختصّة بمعالجتي إنكار مرضي الطاريء ، رغم أن أطباءها بذلوا قصارى جهودهم في معالجتي دون جدوى . وبالرغم من السرّية التامة التي أحاطت بها تقريرها الطبي السّري ، تمكنت من الحصول على نسخة منه ، إذ ينصّ على أن العجز الجنسي الذي كنت أعاني منه ، كان غامضاً للغاية . و تبيّن من خلال إخضاعي للعلاج بأني مصاب بعجز جنسي ثانوي ، أي ذلك الذي يحدث للرجل الذي مارس حالة جماع ناجحة في حياته على الأقل ، وهو يحدث لمن يتناول كميات كبيرة من الكحول أو يدمن على تناولها ، وكذلك للأشخاص المصابين بداء السكر أو مرض التضخم ، غير المتناسق ، الناشيء عن اضطراب الغدة الكظرية والغدد الصّماء كالغدة النخامية والدرقية وغيرها . ولم يلاحظ عليّ أعراض ناتجة عن الاضطرابات الوراثية التي تظهر في مورّثات الأنثى على الرجل مثل تضخم الثدي والقوام الناعم وعدم وجود الشعر على الجلد ، وصغر القضيب . . الخ فلم تظهر تلك الأعراض السالفة بشكل دقيق لكن الأطباء المختصين ، كما ورد في التقرير الطبي السّري ، اكتشفوا تشوهاً

في فتحة الإحليل في الجزء الأسفل من قضيبي نتيجة اختراق أعماق عروقه شظايا حديدية حادة مثل شفرات موسى الحلاقة مما أدّى الى شلّل عملية الانتصاب . وفشلت كل العمليات الجراحية التي أجريت من أجل إخراج تلك الشظايا التي ظلّ بعضها مستقراً هناك ، وربما دمّرت شظايا أخرى الجزء المسؤول عن المخيلة الجنسية في الدماغ كما تصّور بعض الأطباء الآخرين في تقاريرهم الطبية ، لكنني أخفيت هذا السّر حتى عن أعزّ إنسان عندي : أمي . والتجأت لهذا الحلّ لأسباب شخصية تتعلق بيّ أكثر مما تتعلق بالقوانين المفروضة عليّ من أجل الاّ أفسّد زواجي من شيرين التي أحببتها منذ سنوات مراهقتي . وكنت أفضّل ، وربما بوازع أناني ، أن تكون بجواري وأراها كل يوم ، واهماً بفكرة الحب الخارق ، لكن شيرين شأنها شأن بنات حواء جميعاً كانت تطمح الى تحقيق رغباتها المشروعة كأي أنثى على الأرض .

- ابني عبد الرحمن

- نعم أمي .

أكملي القراءة ياشيرين

هكذا إذن حدث كل شيء مرّة واحدة ، في لحظة خاطفة عندما كنا نعيش في زمن لا نعرف فيه تعاقب الليل والنهار الاّ من شق الألواح المكدّسة على رؤوسنا والمغمورة بالرمال للتمويه أمام العدو ، وقد فاض الظلام في تلك الليلة على الخنادق الرملية التي كنّا نتحصّن بها من نيران القصف الذي لم يعرف الهدنة الاّ في لحظات عابرة ، كنّا نخرج رؤوسنا لنتخّلص من الهواء الفاسد الرطب الذي اختزنته رئاتنا لأيام عديدة ، فمنذ أعوام طويلة أصبحت الحرب أفقنا الوحيد ، نستبدل فيه الخنادق الترابية بخنادق رملية ، وحرب الثمانية أعوام بحرب الاثنين وأربعين يوماً ، من حرب الى أخرى . في هذه الخنادق الممتدة على الحدود وخارجها ، كنّا نشعر بالشظايا النارية تتطاير فوق رؤوسنا مثل

تناثر ريش طائر جريح يتعثّر بين بقع ضوئية ملتّهبة في السماء ، كنت أرقبها من فتحات الألواح الحديدية التي أصبحت مثل قباب فولاذية ، ومن وسط الضوء نفذت الشظايا التائهة الى خندقنا مثل سهام نارية قطعت رؤوس الجنود الخمسة الذين كانوا معي فيما اندست الشظايا الأخرى بين فخذّي واستقرت قطع صغيرة منها في ألياف ذكري وعروقه ، معلنة عن ولادة حرقة ، مزيج محيّر من ألم طاغ سرعان ما تخلصت من المخدّر على سرير المستشفى المتنقل ، فأدركت بأن شيئا ما غادرني الى الأبد ولم يترك من ذكري سوى جلدة ، رخوة ، رقيقة ، متدلية ، من بين فخذي المحترقتين الى الأسفل ، لا تتحرك حتى لو وخزتها بإبر ساخنة ، أدركت آنذاك بأن الشظايا اللعينة أصابت قضيبي وحدي فيما سكت رفاقي الجنود الآخرون في الخندق والى الأبد . . فتذوقت ثمرة الحرب التي كنت أجهلها ورأيتها فيما بعد مع شيرين ، مثل دودة خبيثة نخرت كبريائي والتهمت رجولتي!

٤

سهرت أمي الليلة بأكملها مع أخي الراحل ، لا أعرف ما الذي فعلته هذا الوقت ، لكني أعرف بأنها أوقدت حول جثمانه الشموع وكان صوتها المشحون بالبكاء ، يتناهى الى أسماعي بين حين وآخر . ودون إرادتي ، ذهب تفكيري صوب شيرين ، إذ أنها لم تهدأ بعد الإنجاب بل تحولت الى نمرة جريحة ، تاركة باب غرفتها مفتوحا على مصراعيه ، تنبعث منه تنهداتها ، مزيج من نشوة وحذر ، بقايا طلقها الأنثوي الشبقي ، لجذبي الى مغامرة جديدة بعد أن أفرغت أحشاءها من الدماء المتخثرة وقطع اللحم الزائدة ، بهرت بصري صورة كبيرة لعنكبوت رسم بخيوط التطريز على ثوبها الأزرق الشفاف ، ما بين منطقتي النهدين والركبتين ، عنكبوت محنّط التصق على صدرها ، فتألق وجهها بجمال وحشي ، مما حثني على المضي الى حمى جسدها وهي تخطو نحو غرفتي ، كأنها تخطو الخطوة الأولى في إغرائها الأنثوي ، وهي تبدو أكثر طمأنينة كأنها تخلصّت من مرض خبيث بعد الولادة ، لكن حالتها جعلتني أكثر قلقاً ، فجمعت قواي ، وتحصّنت

بالصمت كله الذي مرّرت به في الغابات ، أثناء قدومي الى منزلنا قبل تسعة أشهر ، لأنثره هنا ، في هذا الفجر المخيف ، وحذرت من وقع خطاها المتعثرة وجمالها المخدّر ، هجمت عليها لأنزع عن جسدها هذا الثوب العنكبوتي ، دون أن أتمكن وقلت في نفسي :

– هل ينبغي أن أقتل هذا العنكبوت الضخم الجاثم على صدرها لأضاجعها مرّة أخرى؟!

ورغم لمسي لثوبها لم أكن قادراً على التحقُّق هل لو كان العنكبوت على صدرها رسماً أم حقيقة! وتوهجت عيناها ببريق شهواني ، مختبيء وراء هذا الحيوان الكئيب ، وكلما تقدمت خطوة نحوي ، تقدمتُ بخطوة أخرى نحوها ، كأننا نقف في ساحة حرب ، نعلن عن مبارزة دامية ، ونوشك على إشهار أسلحتنا أحدنا على الآخر ، لكن الخوف إستولى عليها فجأة لأنني لم أكن أعرف فيما لو كانت مدجّجة بأسلحة سّرية للانتقام مني . وما إن إشتبكنا في عناق حميم ، حتى أحسستُ بيديها المرتجفتين تتصّلبان وتلتفان حول عنقي ، كحبل مشنقة حتى اضطرّت الى فكّ شرنقة الأصابع الجامدة العروق ، بضربة من الأسفل ، جعلتها تتراجع الى الوراء ، وتتكئ على الجدار المقابل ، ثم هبّت بالهجوم عليّ بهّمة ، وكرّرت لّف يديها علي عنقي ، وكادت تخنقني ، فدفعتها الى إحدى زوايا الغرفة ، فسقطت على الأرض ، بعد ذلك نهضت بوحشية ، تطاير من عينيها نور مخيف ، فكرّرت هجومها عليّ في محاولة خنقي ، فيما تفجّرت عروق ذراعيها بالدماء ، ولم تعطني أية فرصة للدفاع عن نفسي الاّ باستلال السيف القديم الذي كان معلقاً مثل ديكور قديم على الجدار ، وطعنتها في قلب العنكبوت المرسوم واللاصق على صدرها ، فتهاوت على الأرض ، ونبت السيف في صدرها ، وقبل أن تلّفظ أنفاسها الأخيرة ، هرعت الى أمي مستنجداً بها ، فيما سمعت صراخ النسوة وضجيج المشيعين خارج أسوار منزلنا ، رأيتها جاثمة على جسد أخي الميت ، تبكي ، فطلبت

منها المجيء معي ، وعند عتبة غرفتي ، وقفت أمي فاغرة الفم ، وهي تدقق النظر بالهالة البيضاء التي فاضت وحجبت الرؤية ، لكنها سرعان ما تبددت بعد لحظات ، فظهرت جثة عنكبوت ضخم ، تمتد أذرعه وأرجله الأخطبوطية الى الجدران المتقابلة ، وفرش أرضية الغرفة ، مطعوناً بسيف صدئ ، تتدفق منه قطرات دم حمراء تميل الى الاسوداد ، صرّخت أمي :

- شيرين عنكبوت!

وطغى علينا صمت بارد ، فقلت في نفسي :

- هل جننت لأقتلها بهذه الطريقة الشنيعة؟!

واكتشفت بأنها إمرأة لا تستطيع مضاجعة الرجل سوى مرّة واحدة في حياتها أشبه ما تكون بزوجات العناكب المفترسة التي داهمت مخيلتي في إحدى ليالي الشتاء الطويلة على صفحات كتاب قديم : ثمة زوجة تقضم رقبة عريسها وتقطعها في أحلى ساعات العمر . وغيرها تبقّر بطن رجلها وتأكل أحشاءه بعد أن يؤدي معها واجباته الزوجية . وأخرى توثق رباط زوجها حتى لا يهرب بعد وصلة الجنس فيكون لها بمثابة وليمة دسمة . ورابعة تنتزع الأعضاء الجنسية لزوجها وتحتفظ بها في داخلها لتصبح جزءاً من تكوينها وأعضائها وبهذا تصبح الزوجة أنثى في الظاهر وتحمل أعضاء الذكر والأنثى في الباطن لتبقى خصبة طوال حياتها فلا تحتاج الى ذكر بعد ذلك أبداً!

وقلت في نفسي :

- أي نوع من العناكب هي شيرين؟!

ثم تساءلت :

- هل يمكن أن يكون خيال العناكب المفترسة أغرب من خيال البشر؟

وآمنت آنذاك بأنه لو أن عبد الرحمن ضاجعها لقتلته في الحال ، لقوتها المفترسة .

أفاقت أمي من غيبوبتها وهي تتمتم :
- أما تزال العناكب تخطط لتعاستنا؟
ثم قالت :
- كان عليه أن يطلق سراح العناكب من سجنها الأبدي!
وصرخت بقوة :
- مَنْ يجرؤ على النظر في وجه العناكب؟
وهرعت الى غرفة أخي وجلبت نظارتيه السميكتين ومجهره الزجاجي من تحت وسادته وهشمتهما أمامي . حينئذ علمت بأن أخي أمضى زمناً في غرفة العناكب قبل لجوء شيرين إليها . فيما تصّر أمي على إزالة خيوطها بمكنستها من جدران غرفنا وزواياها المظلمة ، في النهار لكنها تنجب وتتآمر وتتقاتل وتتكاثر في الليل دون توقف جراء اجترارها لضوء النهار ولفظه على شكل بصاق ، وتساءلت :
- هل يمكن لهذه الكائنات الخبيثة أن تصنع حياتها بعيداً عنا وتدرك جوهر عجزنا الإنساني؟
وقفنا كالمشلولين أمام جثة شيرين ، ارتعدت أوصالي من نظرات أمي المخيفة ، وقلت لها في محاولة لتهدئة روعها ، بصوت خافت :
- العناكب تنقل الأرواح الى الجحيم!
استدارت نحوي وانفجرت في وجهي :
- لتذهب روحك الى الجحيم!
إرتميت على يديها أقبلّهما ، وأتوسل إليها بالاّ تفشي سّر جريمتي ، وقد تمددت جثة شيرين متكوّرة ، بين السرير والأثاث المبعثر على السجّادات الرّثة ، يضيء وجهها مصباح نفطي يحوم حوله ذباب وحشي ، آخذ بالأفول التدريجي وهو يمتزج بضوء الفجر ، منيراً الجزء الظاهر من السيف النابت في صدرها ، ومعلناً عن انتهاء معركة عنيفة كان وقودها رجل ضعيف وامرأة غريبة الأطوار . حاولت أن أسّتل أداة جريمتي من صدرها الهامد ، لكن جسدها الطرّي أصبح قطعة فلين أو

كتلة مطاطية ، فيما اصطفت العناكب على هيئة تشكيلات جنود ، بانضباط وهيبة على الجدران ، أضاف الى موتها معنى مضطرباً يصعب تصنيفه بين خانات المشاعر والأحاسيس ، بل وذهبت في إخلاصها الى أبعد من ذلك حين تجمّعت على ألواح نافذتها الزجاجية ، تلوّح بأكفها الضعيفة ، الواهنة ، استكمالاً ، لتوديعها الى مأواها الأخير ، بينما التصقت عناكب أخرى بتابوتها الذي هيأته النسوة الى جانب تابوت عبد الرحمن في صحن المنزل ، كأنها تسعى لمرافقتها الى حفرة القبر الرطبة ، فتذكرت توابيت المساجد المهملة التي عادة ما كانت العناكب تعششُ فيها زمناً طويلاً قبل الحرب ، وفي تلك الأثناء نطقت أمي معلنة عن شفقتها عليه وانقاذها لمصيري ومصير حفيدها :

– ماذا نقول للناس . . عبد الرحمن قتل شيرين قبل انتحاره؟!

كدّت أطير من فرحي الأناني لهذه الفكرة الشيطانية ، فقد اختارت أمي هكذا ، وبايحاء من غريزتها الحب عند الضعفاء يتضمن دائما توجهاً مؤكداً للقتل ، لتضع نهاية لكل التأويلات ولتنقذني من مصيري المحتوم ، السجن المؤبد وسط حشرات السجن الضالة ، لكني كنت أخشى ، رغم مساومتها ، أن تقدم في لحظة ضعف أو تأنيب ضمير على الوشاية بيّ ، ثم تركتني مع جثة شيرين عندما تعالى صراخ الجنين وهرعت الى أخي المسجى في غرفته . مات العريسان في وقت واحد يفصل بين أجليهما بياض الفجر ، في تدرجاته الضوئية الحزينة .

وما إن تلاشى الفجر ، وحّل الصباح ، حتى تمّت كل تحضيرات الدفن ، فيما ظهرت الطوابير البشرية المترنحة كالظلال ، تتدافع بأكتافها وتتزاحم لحمل نعشي العريسين ، تهيمن على وجوههم حمى ملامسة الجسدين الميتين ، وقد ملأت قطرات المطر حفرتي القبرين المتجاورين مما اضطر حفّاري القبرين الى إفراغهما ، لإنزال النعشين فيهما . وأثناء انشغال المشيّعين بدفن شيرين ، سارعت لحمل جثة عبد الرحمن بيدي ، واضعاً جسده الصغير في اللحّد الترابي الضيق ، فكانت بضعة

طوابيق كافية لتغطيته . فبكيت بمرارة في حفرة القبر بينما لاح لي وجه ابني الذي طالما اشتقت لرؤيته . وتكاثرت النسوة ، وهنّ يحملن على رؤوسهن طوابيق ، مزركشة ، كأنها مطلّية بماء الذهب ، وشاهدة رخامية كبيرة ، قرأت في عيونهن المنخفضة نحو الأرض أحلامهن بتحويل قبره الى مزار نبي لم يعرف الخطيئة ، فيما تناهى الى سمعي رنين أحاديثهن عن العالم السفلي ، كالهذيان : عليه أن يحلم باللّذة بعيداً هناك في الجنة وهل يصل الرجال الى النساء في الجنة ، ان الرجل ليصل في اليوم الى مئة عذراء اذا جامع أهل الجنة نساءهم عدن أبكاراً وهل يتناكح أهل الجنّة يتناكحون بذكر لا يمّل وبشهوة لا تنقطع .

بعد انتهاء مراسم الدفن ، سلّمتني أمي مظروفاً تركه لي أخي الراحل : دفتر صغير ليوميات غير مكتملة ، فلم أتمالك نفسي من البكاء أن أرى خط يده المرتبك كأنه خط يد طفل تعلّم الكتابة لتوّه ، أوراق أشبه ما تكون بوصية ، خليط من نثر وشعر ومسرح ورسومات بدائية لوجوه وأجساد تحاول لفظ آلامها الى الخارج . بدأت بقراءتها في القطار الذي كان يقلني الى القرية النائية التي أعمل فيها ، وأحسست من قراءة السطر الأول بأنني كنت غارقاً في عجزه . وها أنا ذا أعود وحيداً الى مهنتي الرتيبة ، بعد أن تركت ابني لأمي ، كنوع من العزاء ، ومن ذلك السديم الذي دام تسعة أشهر لم يبق لي سوى اسمي عبد الرحمن وشيرين ، حُفرا في ذاكرتي ، متجاهلاً سّر ابني ، غير الشرعي الذي لا تعرفه سوى أمي وتلك العناكب ، وربما الله . . . ومنذ ذلك اليوم أصبحت أنظر الى العالم عبر نافذة العنكبوت لأن المنافذ كلها ، على ما يبدو ، قد انغلقت أمامي باحكام في تلك البقعة النائية ، مدينتي .

جلولاء - دوفيل - باريس
حزيران ١٩٩٤

الفهرس

- الشهر الأول :
صباحات لها مذاق الصدأ ٩
- الشهر الثاني :
التلصص من ثقب غشاء البكارة ١٣
- الشهر الثالث :
بين المرئي واللامرئي ٤٣
- الشهر الرابع :
محرقة آدمية لغرائز حيوانية ٥٩
-الشهر الخامس :
دم فاسد في شجرة العائلة ٧٣
- الشهر السادس :
بطن حبلى برياح الخريف ٨٧
- الشهر السابع :
لم تكن قبّة السماء الاّ نسيج أنثوي ١٠٥
- الشهر الثامن :
لا يجيد الإله سوى صنع الكلمات ١٢١
- الشهر التاسع :
الشبيه يهّدد بتخريب صرح البشرية ١٣٩

نافذة العنكبوت

... ذلك العنكبوت الّذي طالما راقبته في الغرفة المهملة من منزلنا الطينيّ ما يزال يعشّش وينسج بيته بدقّة وينظر إلى ما حوله باطمئنان فلسفيّ رهيب. ومع ذلك فهو لا يعرف شيئاً من العجائب، الّتي تحصل في الغرفة الّتي ولد فيها، والّتي أمضى على جدرانها الطينيّة ونافذتها الوحيدة وسقفها الخشبيّ وأركانها المظلمة حياته كلّها، دون أن يعرف بأنّه سيحتضر في ضوء النهار، ذلك لأنّ سيّد تلك الغرفة جاء ذات صباح، بخطوات حذرة مثل خطى ذئب من أعماق مغارة عميقة، مظلمة، مليئة بالزغب والدم والروائح واللحم العاري من الجلد، هجم على ذلك العنكبوت وطرده من مملكته .. هكذا وبدون إرادتي أصبحت أنظر إلى العالم عبر نافذة العنكبوت لأنّ المنافذ كلّها، على ما يبدو، قد أغلقت أمامي بإحكام.

منشورات 2000

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي
هاتفاكس: ٨٠٧٩٠٠/٨٧٩٨٠٣